اللاأخلاقي

أندريه جيد

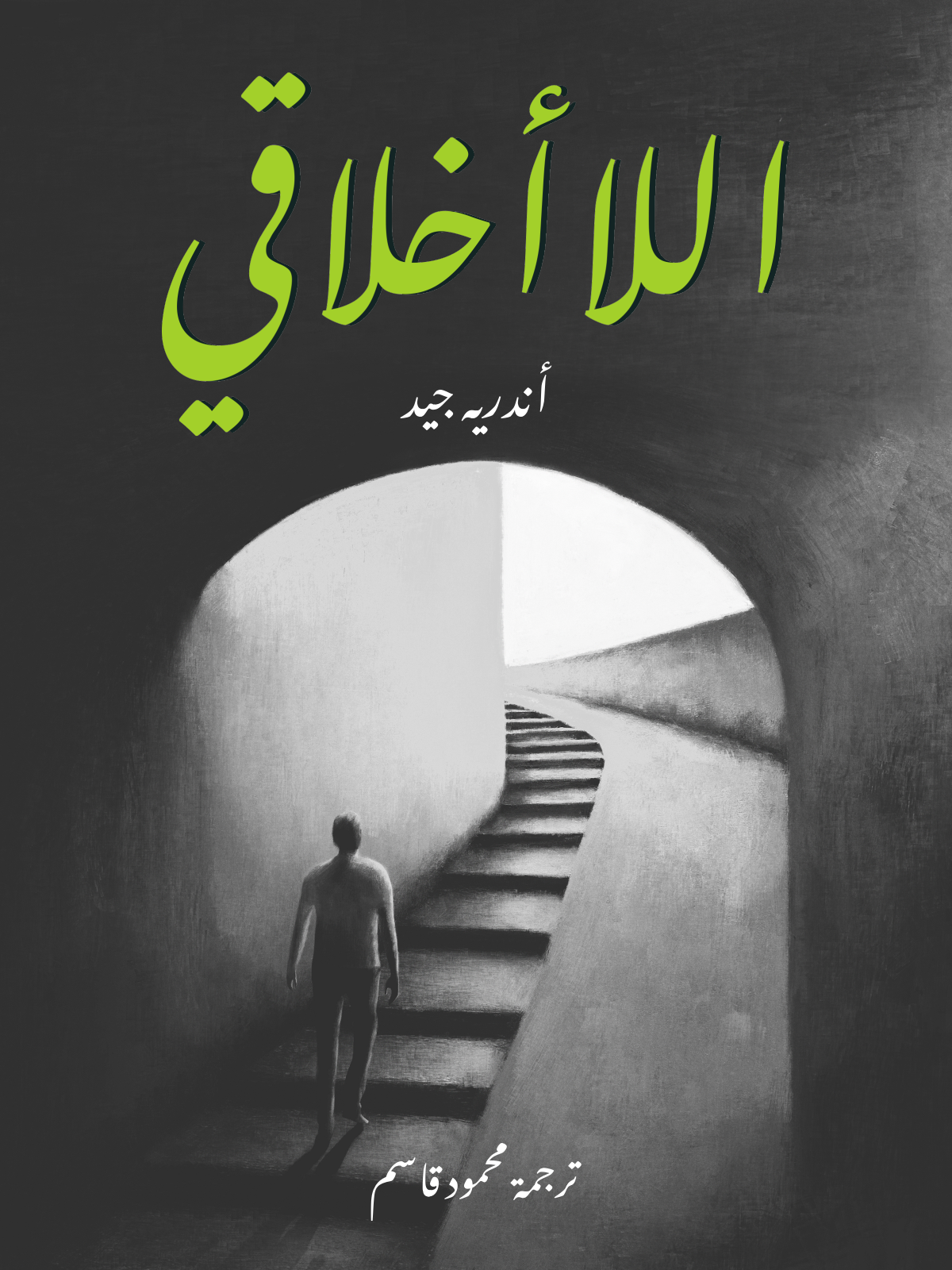

ترجمة محمود قاسم

اللاأخلاقي

تأليف
أندريه جيد

ترجمة
محمود قاسم

هنـــداوي

اللاأخلاقي

أندريه جيد

The Immoralist

André Gide

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣٥٠٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٠٢.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمود قاسم.

المحتويات

القسم الأول	١١
القسم الثاني	٤٣
القسم الثالث	٧٩

إلى السيد/ د. ر رئيس المجلس
سيدي ب. م «٣٠ من يوليو عام ١٨٩٠م»

نعم، أنت تذكره جيدًا. فكم حدثنا عنه أخونا العزيز. إنه «ميشيل» ها هو ذا النص الذي كتبه لنا. لقد طلبته ووعدتك بذلك. لكنني ترددت كثيرًا لحظة إرساله. وعندما أعدت قراءته بدا لي مخيفًا. آه!

ماذا ستعتقد في صديقنا؟ ثم كيف أراه أنا بدوري؟ فلنقل بكل بساطة: إننا يمكن أن نعرف كفاءات تبدو بالغة العمق مما يعطينا مساحة للانتظار، وهذا ما أخشاه.

فمن منا لا يستطيع أن يتعرف في هذا النص على نفسه؟ هل يمكن أن نجد وظيفة لشخص يملك الكثير من الذكاء والقوة، أو نأبى عليه كل هذه الحقوق المدنية التي يستحقها؟

تُرى في أي مجال يمكن لـ «ميشيل» أن يخدم بلده؟ أعترف أنني لا أعرف الإجابة ... يلزمه أن يشغل المكانة العليا التي تشغلونها، السلطة التي تمسَّك بها. هل سيسمحون له أن يحصل عليها إذَن؟ أسرع، فـ «ميشيل» ممتن، وهو هكذا دائمًا، وسوف يكون قريبًا أكثر من ذلك.

أكتب لك من تحت سماء صافية، نحن هنا منذ اثني عشر يومًا. أنا، ودانييل، ودنيس، لا سحب ولا حجب للشمس. ويؤكد «ميشيل» أن السماء نقية منذ شهرين.

لست حزينًا، ولا مبتهجًا، فالجو هنا يملؤك بقدسية بالغة العمق، ويجعلك تعرف شيئًا يبدو لك بعيدًا عن البهجة أكثر من الألم، وربما أكثر من السعادة.

نحن على مقربة من «ميشيل»، ولا نود أن نتركه، سوف تفهم السبب إذا وددت أن أقرأ لك هذه الصفحات، فنحن هنا في دارك، وننتظر إجابتك، وأرجو ألا تتأخر في الرد عليها.

أنت تعرف أي صداقة جامعية قوية ربطتنا، كانت تكبر في كل عام، وتربط «ميشيل» بـ «دنيس» وبي، فبيننا نحن الأربعة نوع من التعاقد الضمني، أو على الأقل إذا نادى أحدنا فعلى الثلاثة الآخرين أن يلبوا. وعندما جاءتني هذه الصيحة التحذيرية الغامضة من «ميشيل»، سرعان ما أخبرت دانييل ودنيس. وعلى الفور رحلنا نحن الثلاثة.

لم نرَ «ميشيل» منذ ثلاث سنوات، لقد تزوج ورافق امرأته في رحلة، وعند مروره الأخير على «باريس» كان دنيس في اليونان، ودانييل في روسيا.

أما أنا فقد كنت — كما تعرف — قريبًا من أبينا المريض، ومع ذلك لم تنقطع عنا أخباره الجديدة؛ فقد وردت أنباء عن «سيلا» و«ويل» اللذَين رأياه ثانية.

لم تدهشنا هذه الأخبار. فقد كان هناك تغير في داخله، ولم نستطع أن نفسر سبب ذلك. لم يكن ذلك هو الصفاء بالغ الوضوح الذي كان يتسم به منذ عهد قريب، ولا حركاته الحمقاء التي كان يفعلها، ولا نظراته البالغة الوضوح التي تنتابنا دائمًا الرغبة أمامها في أن نتوقف.

لقد كان … ولكن لماذا أحدثك إذَن عن شيء سيقوله لك هذا النص؟!

أرسل إليك هذا النص، عما سمعه كل من «دنيس» و«دانييل» وأنا، لقد كتبه «ميشيل» في شرفته؛ حيث كنا نتمدد على مقربة منه في الظل، أو في ضوء النهار يشرق على الوادي ويعلو منزل «ميشيل»، وأيضًا القرية التي لم تكن تبعد عنا كثيرًا. كان هذا الوادي أشبه بالصحراء، فدرجة حرارته عالية، وهو كثيف العشب.

وبرغم أن منزل «ميشيل» كان فقيرًا وغريبًا، فإنه كان ساحرًا، وفيه يعاني الناس من البرد شتاءً؛ لأنه لم يكن هناك زجاج في النوافذ، أو بالأحرى نوافذ، ولكن كانت هناك فتحات في الجدران؛ لذا كم كان جميلًا أن ننام في الخارج فوق المفارش!

أقول لك أيضًا أننا قضينا رحلة ممتعة، وصلنا إلى هنا ذات مساء وقد أنهكنا الحر، واستبد بنا السُّكر من جديد.

لقد توقفنا قليلًا في الجزائر، ثم «قسنطينة»، ومن «قسنطينة» ركبنا قطارًا توجه بنا إلى «سيدي ب. م» حيث كانت تنتظرنا عربة «حنطور».

كان الطريق مليئًا بالقرى، بعضها معلق في قمة صخرية مثل بعض بلدان «عنبري». صعدنا إليها على أقدامنا، ووضعنا متاعنا فوق بغلتين، وعندما سلكنا هذا الدرب كان منزل «ميشيل» أول بيت في القرية، وكان له حديقة تحوطها الجدران الواطئة، أو بالأحرى تحوطها أرض مُسوَّرة تقطعها ثلاثة أشجار رمان وشجرة «دنيبة».

كان هناك طفل قبَلي أسرع بالفرار بمجرد أن رآنا نقترب قفز وعبر السور.

استقبلنا «ميشيل» دون أن تبدو عليه البهجة، وسرعان ما أعد العشاء في قاعة أدهشنا ديكورها الرائع، ولعل هذا سيفسر لك نص «ميشيل»، ثم قدم لنا القهوة التي أُعدت بعناية شديدة، ثم خرجنا إلى الشرفة؛ حيث تمتد الرؤية إلى ما لا نهاية. وشرعنا ثلاثتنا — كأصدقاء قدامى — نتغزل في التل، وسرعان ما حلَّ الليل.

وما إن حلَّ الليل حتى قال «ميشيل»:

القسم الأول

(١)

الأعزاء، أعرفكم أوفياء، وعندما أنادي تلبون جميعكم، مثلما أفعل معكم، وبرغم أنك لم تروني منذ ثلاث سنوات؛ فإن صداقتكم ظلت تقاوم هذا الغياب الطويل، وتقاوم أيضًا هذا النص الذي أريد أن أطرحه عليكم؛ لأنني حين استدعيتكم فجأة وسافرتم حتى مسكني البعيد؛ فذلك لأنني أريد رؤيتكم، وكي يمكنكم سماعي.

لا أبغي سوى أن أتكلم إليكم؛ لأنني وصلت إلى نقطة من حياتي لا يمكنني أن أتجاوزها، رغم أن هذا ليس مثيرًا للملل، ولكنني لم أعد أفهم المزيد.

كم أنا في حاجة لأن أتكلم إليكم، وأتحدث معكم، وأعرف أن التحرر ليس شيئًا منشودًا، وأن من القسوة على المرء أن يعرف أنه حر. أنتم تعانون لأنني أتكلم عن نفسي، سوف أقص عليكم قصة حياتي بكل وضوح وبتواضع وبلا مكابرة، وبمنتهى البساطة سوف أتكلم عن نفسي، فاستمعوا إليَّ:

في المرة الأخيرة التي رأى فيها بعضنا البعض، كان ذلك — على ما أتذكر — في ضاحية «انجر» في كنيسة ريفية صغيرة، حيث أقيم حفل زفافي. كان عدد المدعوين قليلًا، وقد جعل تميز الأصدقاء في هذه الليلة الحفل مؤثِّرًا، بدا لي أنهم قد أصابهم التأثُّر، وقد هزني هذا كثيرًا.

ففي منزل الفتاة التي أصبحت زوجتي أقيم حفل عشاء بسيط، خالٍ من الضحكات والصيحات.

لقد جمعكم هذا العشاء بعد الخروج من الكنيسة، ثم أقلَّتنا السيارة التي طلبناها، وحسب الفكرة التي تعتمل في أرواحنا فإن السيارة كانت بمثابة رصيف للرحيل.

كنت أعرف القليل عن زوجتي، وفكرت — بدون معاناة طويلة — أنها لم تعرفني جيدًا، لو تزوجتها من غير حب، وذلك بدافع مجاملة أبي، الذي كم أخاف أن يموت ويتركني وحيدًا. كنت أحب أبي كثيرًا، وكنت مهمومًا بمعاناته. وفكرت — وهو في لحظات أحزانه — أن أجعل نهايته أكثر رقة، وأن أربط حياتي بالفتاة دون أن أعرف ماذا تكون الحياة.

وتمت خطبتنا فوق فراش أبي بلا أي فرصة، وأيضًا بلا أي بهجة ظاهرة؛ لأن السلام الذي كان أبي يبحث عنه بدا حبًّا، وإذا لم أكن قد أحببت خطيبتي — كما قلت — إلا قليلًا فإنني لم أكن أحب امرأة أخرى، وكان هذا يكفي — في ناظري — أن أجد سعادتنا. وألا أعلم شيئًا عن نفسي.

اعتقدت أنني منحتها أشياء كثيرة، فقد كانت يتيمة مثلي وتعيش مع أخويها.

كانت تسمى «مارسلين»، وتكاد تبلغ العشرين من العمر، أما أنا فأزيد عليها أربع سنوات. قلت إني لم أحبها قط، على الأقل لم أمثل لها شيئًا مما يُسمى الحب، ولكنني أحببتها بما يمكن أن تسميه حنانًا وشفقة، وأيضًا من الاحترام المتناهي، كانت كاثوليكية، أما أنا فبروتستانتي وأقل إيمانًا!

وافق القس عليَّ ووافقت على القس، وتم هذا بدون أي أحداث غير عادية. كان أبي — كما يقال — عقلانيًّا، أو كما أعتقد، ليست لديه أفكار عن الفضيلة التي كنت أتصور أنه يمتلكها؛ لذا لم أناقشه قط في مسألة عقلانية.

أما الأشياء التي تعلمتها من أمي، فقد مُحيت — مع وجهها الجميل — ببطء عبر الزمن، أنتم تعرفون أنني فقدتها وأنا صغير السن، ولم أشك قط في هذه الأفكار التي سيطرت على طفولتي، ولم يعلَق بذهني شيءٌ عن فكرها، فهذا النوع من الزهد الذي تركته لي أمي قد أسفر عن ترسيخ المبادئ، وقد حملتها معي كلها أثناء الدراسة.

فقدت أمي وأنا في الخامسة عشرة من عمري، وانشغل بي أبي، وأحاطني، ولفني بمشاعره، واهتم بتعليمي، كنت أعرف — آنذاك — اللاتينية واليونانية، وتعلمت معه العبرية بسرعة، والسنسكريتية، وأخيرًا الفارسية والعربية.

وعندما بلغت العشرين كنت شديد الحماس، لدرجة أنه أشركني في أعماله، وراح يتصرف كأنه نِدٌّ لي، وأراد أن يختبرني بشأن دراسة في عبادات الفريجان التي نشرت حاملة اسمه، لم يكن هناك شيء يمكن أن يوفيه تقريظًا. كان ممتنًّا، أما بالنسبة لي فقد كنت متشوقًا لرؤية نجاح هذا التزييف، ولكن منذ تلك اللحظة لم تعبأ بهذا الأمر، فالعلماء الأكثر علمًا قد عاملوني على أنني زميل لهم، وها أنا ذا أبتسم الآن من كل الشرف الذي نلته.

وهكذا بلغت الخامسة والعشرين، ولم أكن أنظر إلا إلى الأطلال أو الكتب القديمة، لا أعرف شيئًا آخر عن الحياة، وأقوم بعملي بحمية خاصة، وأحببت أصدقائي «وأنتم منهم». وكنت أكن لهم مشاعر الصداقة الحقيقية؛ فقد كان إخلاصي لهم كبيرًا، وبرغم ذلك، فقد كنت أجهل أصدقائي مثلما أجهل نفسي، ولم تخطر على بالي للحظة فكرة أنني أستطيع أن أحيا حياة مختلفة، لا أن أعيش حياة مختلفة، ولا أن أعيش بطريقة أخرى.

كان لدى أبي، ولديَّ أشياء قليلة تكفينا، فقد أسرف كلانا قليلًا، وبلغت الخامسة والعشرين بدون أن أعرف أننا أثرياء، وكم تخيلت — بدون أن أفكر دومًا — أننا نمتلك — فقط — ما يكفينا للمعيشة.

لقد اعتدت وأنا على مقربة من أبي على التدبير. وما لبثت أن فهمت أننا نمتلك الكثير جدًّا.

كنت — إلى هذا الحد أجهل الأشياء — ولم يحدث هذا إلا بعد وفاة أبي الذي كنت وريثه الوحيد، وأصبحت أكثر وعيًا لنزوتي، وخاصةً عندما وقَّعت عقد زواجي، وأدركت أن «مارسلين» لن تنجب لي شيئًا.

هناك شيء آخر مهم للغاية كنت أجهله، هو أنني كنت في حالة صحية حساسة، وكيف لي أن أعرف ذلك، خاصةً أنني لم أختبر في ذلك؟

كان الروماتيزم يصيبني من وقت لآخر، وأهملت في علاج نفسي منه، فالحياة الهادئة التي كنت أحياها أحيانًا أصابتني بالضعف العام، كما بدت لي — أحيانًا — قوية، وهذا ما كان يجب أن أعرفه. قضينا ليلة عرسنا في شقتي الباريسية، حيث أعددنا سريرين، لم يبقَ في «باريس» سوى الوقت الذي كان يلزمنا فيه أن نشتري بعض أشياء، ثم اتجهنا إلى مارسيليا، ومن هناك أبحرنا إلى تونس.

ثم انتهت الأحداث بسرعة، وحلت مشاعر حفل الزفاف بعد فترة العزاء الحقيقية، ولم أحس بما عانيته إلا فوق المركب، حيث استطعت أن أحس بتعبئة خاصة في كل عمل.

وحينما كنت أتسلى كان وقت الفراغ الذي أقضيه فوق سطح المركب يتيح لي فرصة التفكير، بدا لي كأن هذا يحدث لأول مرة.

وللمرة الأولى أيضًا وافقت أن أتخلص من عملي لفترة طويلة، لم أكن مرتبطًا آنذاك إلا بإنجازات قصيرة: رحلة إلى إسبانيا مع أبي — بعد وفاة أبي بقليل — لم تستغرق أكثر من شهر، ورحلة أخرى إلى ألمانيا لسنة أسابيع، ورحلات أخرى كانت كلها رحلات دراسية.

لم يكن أبي يتسلى قط أثناء أبحاثه بالغة التعقيد، أما أنا ففي الوقت الذي لا أتابعه كنت أقرأ ... ومع وسط ظلال أكثر وضوحًا: أعياد، وضحكات، وغناء.

ورحت أفكر: ترى هل هذا هو ما سوف ألقاه؟ صعدت فوق مقدمة السفينة ورحت أتطلع إلى مرسيليا وهي تبتعد. فجأة، أحسست أنني أهملت «مارسلين» قليلًا.

كانت جالسة في المقدمة، اقتربتُ منها، ولأول مرة نظرت إليها حقيقةً.

كانت «مارسلين» جميلة كما تعرفون، وقد رأيتموها، لاحظت أنني لم أراقبها من قبل مع أنني أعرفها تمامًا، ها أنا ذا أراها من جديد، فقد ارتبطت أسرتنا معًا فترة طويلة، ورأيتها تكبر، وتعودت على لطفها، ولأول مرة اندهشت، فهذه اللطيفة قد أصبحت بالغة. تركت خمارًا طويلًا ينسل تحت قبعةٍ بسيطةٍ من القش الأسود. كانت شقراء، ولكنها لا تبدو رقيقة، بدت تنورتها ومشدها وكأنهما مصنوعان من شال اسكتلندي اخترناه معًا. لم أودُّ أن تنغمس معي في أحزان عزائي.

أحست أنني أنظر إليها، استدارت نحوي، لم أكن قريبًا منها حتى تلك اللحظة إلا في النزر اليسير. وبدلًا من الحب تملكتني مشاعر باردة وأنا أراها. وددت أن أزعجها قليلًا، هل أحست «مارسلين» في هذه اللحظة أنني أنظر إليها لأول مرة بطريقة مختلفة؟ بدورها دققت فيَّ، ثم ابتسمت لي بِرقة دون أن تتكلم، جلستُ على مقربة منها.

لقد عشت حياتي من أجلي — أو على الأقل حتى تلك اللحظة — فقد تزوجت دون أن أتخيل زوجتي شيئًا آخر غير أن تكون صديقة، أو أفكر أن ارتباطنا يمكن أن يغير حياتي، وفهمت لتوي أن هذا ليس سوى حديث داخلي مع نفسي. كنا وحدنا فوق سطح السفينة. مالت بجبهتها نحوي، وجذبتُها برقة إليَّ. رفعت عينيها، قبَّلتُ أهدابها، وأحسست فجأة على إثر قُبلتي بنوع من الشفقة غمرتني بشدة لدرجة جعلتني لا أسيطر على دموعي. سألتني «مارسلين»: ماذا بك؟

بدأنا في الكلام، سحرتني جُملها الساحرة، تصرفت على قدر استطاعتي، وتكلمتُ عن بعض الأفكار حول حماقات النساء، وقد أحسست — في تلك الأمسية — أنني أنا الساذج والأحمق. إنها الوحيدة التي ربطت حياتها الخاصة بحياتي الحقيقة! أيقظتني هذه الفكرة مرات عديدة في هذه الليلة، ولمرات كثيرة تمددت فوق فراشي لأرى السرير الآخر «الأكثر انخفاضًا» الذي تنام عليه زوجتي «مارسلين».

في اليوم التالي، بدت السماء رائعة، وبدا البحر هادئًا على مقربة منا، وقاربت ما بيننا بعض الأحاديث السريعة، وبدأ الزواج الحقيقي. وأبحرنا في صباح اليوم الأخير من أكتوبر إلى «تونس». كان في نيتي أن أبقى هناك بضعة أيام، ويهمني أن أبوح لكم ببعض غبائي، فلم يجذبني في هذا البلد الجديد سوى «قرطاج» وبعض الأطلال الرومانية، مثل «تيمجاد»

التي حدثنا عنها «أوكتاف»، وفن الموزاييك في مدينة «سوسة»، وخاصةً مسرح «الجُم» الدائري، الذي ظللت أجري فيه لتوِّي.

كان يجب أن أصل إلى «سوسة»، ثم أقلتنا سيارة البريد من «سوسة». كنت أود ألا يشغلني شيء هناك. وبرغم هذا فإن «تونس» فاجأتني بشدة، ولمسَت فيَّ أحاسيس جديدة حرَّكت مشاعري. أشياء كانت نائمة لم يسبق لي أن مارستها، وحفظَت في داخلي كل أسرارها الشابة. كنت أكثر دهشة كشخص يبحث عن التسلية، وما أثار إعجابي حقًّا هو فرحة «مارسلين».

في صباح كل يوم كان المرض يشتد عليَّ، ووجدت أنه من العار أن أمتثل له. رحت أسعل، وأحس بتعب غريب في صدري، فاتجهنا جنوبًا، معتقدًا أن الحرارة قد تساعد في شفائي. تركت عربة المسافرين المتجهة إلى «صفاقس» مدينة «سوسة» في الساعة الثامنة مساءً. ووصلتُ منطقة «الجُم» في الواحدة صباحًا، واحتفظنا بنفس أماكننا.

وتوقعت أن أجد عربة مناسبة، لكن على العكس، كنا غير مستريحين في إقامتنا، إنه البرد! فارتدى كل منا الملابس الخفيفة، شالًا واحدًا. وما إن خرجنا من سوسة، ومن بطن وديانها حتى بدأت الريح تهب. وراحت تعصف فوق الهضبة، وتصرخ وتصفِّر، وتدخل من كل فتحة في البوابة، لا شيء يمكن أن يمنعها. كنا قد وصلنا — خاصةً أنا — إلى أقصى حالات الإنهاك من خلال هزات العَجَل. ومن السعال المرعب الذي راح يهزني بقوة شديدة. يا لها من ليلة!

وعندما وصلنا إلى «الجُم» لم نجد أي فندق. بل كان هناك نُزُل مرعب. ماذا نفعل؟ استأنفَت العربة الرحيل. وبدت المدينة نائمة في وسط الليل الدامس حيث تبدو الأطلال أشبه بهياكل ضخمة، وكلاب تعوي.

اتجهنا إلى نُزُل لم يكن به سوى سريرين. راحت «مارسلين» ترتعد من البرد، لكن — على الأقل — كنا قد أصبحنا بعيدين كثيرًا عن الريح.

بدا النهار في اليوم التالي نديًّا، فقد فوجئنا — أثناء خروجنا — برؤية السماء وقد تلبدت بالسحب، وراحت الريح تهب؛ ولكنها كانت أخف من البارحة. لم تكن العربة تقلع إلا في المساء ... كان يومًا مرعبًا كما أخبرتكم. بدا لي المسرح الدائري قبيحًا أسفل هذه السماء الغاضبة. ربما ساعدها تعبي في أن تزيد من حدة تبرمي؛ لذا عدت في منتصف النهار وأنا أدقق في كل دقائق الحجارة. كانت «مارسلين» تقرأ كتابًا إنجليزيًّا يمنحها بعض السعادة بعيدًا عن صرير الريح. جلست على مقربة منها، وقلت: يا له من يوم حزين! ألا تشعرين بالتبرُّم؟

– لا. كما ترى فإنني أقرأ.
– ماذا جئنا نفعل هنا؟ على الأقل فأنتِ تحسين البرد.
– ليس كثيرًا. وأنت؟ فعلًا! أنت تبدو شاحبًا.
– لا ...

وفي الليل استعادت الريح قوتها ... ووصلت العربة أخيرًا ورحلنا.

وما إن بدأت العجلات في الاهتزاز حتى أحسست أنني أتحطم. ونامت «مارسلين» من شدة التعب على كتفي، لكن سعالي أيقظها على ما أعتقد. وبكل رقة أسندتها على جدار العربة، وجاهدت ألا أسعل. لا. فقد بدأتُ أتقيأ. ومن جديد فعلت ذلك دون أي جهد، وعلى فترات منتظمة.

كان إحساسًا بالغ الغرابة، رحت أعتاد عليه في أول الأمر لكنه راح يبعث فيَّ الغم، وخامرني إحساس مجهول أنه يتركز في فمي. وأصبح منديلي غير صالح للاستعمال؛ فملأت راحة يدي. ترى هل أوقظ «مارسلين»؟

لحسن الحظ فقد تذكرت الوشاح الكبير الذي تلفه حول حزامها فسحبته برقة. بدأت التقيؤات التي لم أستطع مقاومتها تتدافع بغزارة، وتخففت منها بغرابة. إنها نهاية «الإنفلونزا» على ما أعتقد. وفجأة أحسست نفسي خائر القوى، بدا كل شيء يدور حولي، اعتقدت أن شرًّا سوف يُلم بي، ترى هل سوف أوقظها؟ ... آه!

تماسكت بطفولتي البريئة، بكل ما أُكِّن من كراهية للضعف الإنساني، وأنا أتصور أنني فوق بحر من حديد، وأن صوت عجلات العربة قد أصبح كصخب الأمواج ... وتوقفت عن التقيؤ، ثم غرقت في نوم عميق. وعندما خرجت منه كان الفجر قد ملأ السماء، أما «مارسلين» فكانت لا تزال نائمة.

تلامسنا. كان الوشاح الذي أمسكه شفافًا، من النوع الذي لا يظهر فيه شيء، ولكن عندما أخرجت منديلي فوجئت أنه مملوء بالدم. كان أول ما تبادر إلى ذهني هو إخفاء الدم عن «مارسلين» ... ولكن كيف؟ بذلت كل ما بوسعي لكي أخفيه، وخاصةً في يدي، كأنني نزفت من أنفي، لو سألتني فسوف أقول لها: إنني نزفت من أنفي.

ظلت «مارسلين» نائمة حتى وصلنا. كان عليها أن تنزل أولًا، ولم تلحظ شيئًا، ووجدنا غرفتَين محجوزتَين لنا. ألقيت نفسي في حجرتي واغتسلت، وأخفيت الدماء، ولم ترَ «مارسلين» شيئًا. ومع هذا أحسست أنني بالغ الوهن، وطلبت شايًا لاثنين، وبينما كانت تعده بدت هادئة، وشاحبة بعض الشيء، إلا أنها لم تفقد ابتسامتها، انتابني إحساس بالضيق؛ لأنها لم تلحظ شيئًا.

أحسست أنني ظالم وقلت لنفسي: حقًّا، إنها لم ترَ شيئًا مما أخفيته عنها، لا يهم، لكن الأمر تضاعف في داخلي بشكل غريزي ... وفي النهاية اشتد الأمر عليَّ، ولم أتماسك طويلًا. قلت وقد أصابني شرود:

بصقت دمًا هذه الليلة.

لم تصرخ، بل بدت شاحبة للغاية. ترنحت وأرادت أن تتماسك، ثم سقطت بثقلها فوق الأرض.

أسرعت نحوها وقد أصابني صرعة: «مارسلين»! «مارسلين»! هيا! ماذا فعلت؟ ألا يكفي أن أكون مريضًا؟ ولكنني كنت بالغ الوهن، ألا يجب أن أصاب بألم بدوري؟ فتحت الباب، ورحت أنادي وأنا أهرول.

أذكر أنني وجدت في حقيبتي رسالة توصية من ضابط المدينة، استخدمت هذه الرسالة كي أبحث عن طبيب. كانت «مارسلين» في تلك الآونة قد استردت عافيتها ... فهي جالسة الآن عند طرف سريري الذي كنت أرتعد فيه من الحمَّى.

وصل الطبيب وراح يفحصنا — أنا و«مارسلين» — وأكد أن «مارسلين» ليس بها شيء، وأنها لم تحس بنفسها وهي تسقط، أما أنا فقد زادت حالتي سوءًا، لم يود أن يتكلم، ووعد أن يعود قبل أن يحل المساء.

عاد، وابتسم لي وهو يتكلم، أخذ يُسدي العديد من النصائح الطبية. فهمت أنه يدينني — كما صرحت لكم — لم أرتجف، كنت مصابًا بالملل، وتركت نفسي بكل بساطة ... ترى مَن يهبني الحياة؟ لقد عملت بكل طاقتي كل ما يمليه عليَّ واجبي، أما الباقي ... آه! ماذا يهم؟ فكرت وأنا أرى عقلانيتي جميلة بشكل كافٍ. راحت بشاعة المكان تسبب لي المعاناة. فغرفة هذا الفندق بشعة حين أنظر إليها، وفكرت أن هناك غرفة مشابهة مجاورة لغرفة زوجتي «مارسلين».

سمعتها تتكلم بصوت خفيض، مَرَّ بعض الوقت، وكان عليَّ أن أنام.

رأيت «مارسلين» عندما استيقظت، أدركت أنها كانت تبكي، لا أحب الحياة عندما أكون سببًا للشفقة، لكن بشاعة هذا المكان تؤلمني، خاصة عندما تستقر عيناي عليه.

إنها الآن قريبة مني تكتب، بدت لي جميلة، رأيتها تغلق رسائل عديدة، ثم قامت واقتربت من سريري، وأمسكت يدي برقة وقالت: كيف حالك الآن؟

ابتسمتُ وقلتُ بنبرة حزينة: ترى هل سأشفى؟

وعلى الفور ردت: سوف تبرأ.

أحسست بمشاعر مشوشة تجاه كل ما في الدنيا، كما أحسست بالحب تجاهها وتجاه الحياة المتموجة الجميلة، والتي تبدو في دموعها المتدفقة من عينيها لدرجة دفعتني أن أبكي دون أن أجد القوة للدفاع عن نفسي. وبكل حبها القوي دفعتني أن أترك «سوسة» واتجهنا إلى «تونس»، ثم من «تونس» إلى «فلسطين».

بدت «مارسلين» رائعة، وكان عليَّ أن أتماثل للشفاء في «بسكرة». وبدت ثقتها شديدة، ولم يفتر حماسها لحظة، كانت قد أعدت كل شيء، وتدبر كل شيء، تتأكد من المسكن والرحيل، هذا الرحيل الذي يبدو أقل بشاعة، وتصورت مرارًا أن عليَّ أن أتوقف، كنت أتصبب عرقًا مثل شخص يحتضر، وكنت أختنق أحيانًا. وفي نهاية اليوم الثالث وصلت إلى «بسكرة» وأنا أقرب إلى الموتى.

(٢)

لماذا نتكلم عن الأيام الخوالي؟ وماذا بقي منها، فذكرياتها مثيرة للرعب. لم أعرف الكثير عمن أكون أنا ولا عن مكاني. كنت أرى «مارسلين» — فقط — وأنا فوق السرير، جالسة.

أعرف أن عواطفها وعنايتها بي قد أنقذا حياتي، وأنا أشبه ببحار ضائع يتطلع إلى الأرض. كنت أحس بضوء الحياة ينبعث. واستطعت أن أبتسم لـ «مارسلين».

لماذا أحكي كل هذا؟ الآن الموت قد لمسني — كما يقال — بجناحيه، وأصبح من المدهش أن أكون على قيد الحياة، وأصبح النهار بالنسبة لي ضوءًا غير ملهم، ففيما قبل لم أكن أفهم معنى أن يكون المرء حيًّا؛ لذا يجب أن أجعل من الحياة نبضًا دائمًا.

لقد جاء اليوم الذي يمكنني أن أنهض فيه. امتثلت للشفاء في بيتي الذي لم يكن قريبًا سوى شرفة، ويا لها من شرفة! تطل عليها غرفتي وغرفة «مارسلين»، تلك الشرفة تبدو كأنها راقدة فوق السطح وفي أعلى المنزل يستطيع المرء أن يتخيل، ومن أعلى النخيل تطل الصحراء.

وعلى الجانب الآخر من الشرفة تقع حديقة المدينة. لقد كسرت أفرع الحديقة التي تظللها، إنها تمتد بطول الفناء، فناء صغير مرتب، مزروع فيه ست نخيلات، وينتهي بسلم يربطه بالفناء. كانت غرفتي رحبة، يدخلها الهواء، وحوائطها بيضاء غير معلق عليها شيء، ويؤدي بابها الضيق إلى غرفة «مارسلين».

أما الباب الكبير الزجاجي فيفتح على الشرفة. هناك تتعاقب الأيام بلا ساعات. كم رأيت الأيام البطيئة التي مرت أثناء وحدتي! وقد جلست «مارسلين» على مقربة مني تقرأ وتطرز وتكتب.

أما أنا فلا أفعل شيئًا، أنظر إلى الشمس، وأتطلع إلى الظل، وأرى الظل يحل مكان الضوء، وأفكر فيه قليلًا وأنا أراقبه.

كنت لا زلت خائر القوى، أتنفس بصعوبة، كل شيء يؤلمني، حتى القراءة ... لماذا أقرأ ولديَّ ما يشغلني بما فيه الكفاية؟

ذات صباح دخلت «مارسلين» وصاحت ضاحكة: جئت لك بصديق!

ورأيتها تدخل خلفها صبيًّا عربيًّا صغيرًا، أسمر البشرة، كان يُدعى «بشير»، تشع عيناه الواسعتان اللتان تنظران إليَّ بالصمت، أحسست بالامتنان، هذا الامتنان الذي يتعبني، لم أقل شيئًا. وبدا الصبي غاضبًا أمام برودة استقبالي.

استدار نحو «مارسلين»، وبحركة حيوانية لطيفة وممازحة تكور أمامها وأمسك يدها، وقبَّلها بحركة كشفت ذراعيها العاريتين.

أحسست أنه لا يرتدي شيئًا تحت غندورته البيضاء وتحت برنسه[1] غير المكوي. قالت له «مارسلين» التي لاحظت اهتمامي: هيا! اجلس، اجعله يسامرك! جلس الصغير أيضًا، وأخرج سكينًا من برنسه، وقطعة من البوص، وراح يعمل، إنه يود أن يصنع صفارة كما أتصور. وبعد قليل، لم يَعُد وجوده يضايقني.

رحت أنظر إليه وقد بدا أنه نسي وجوده معنا. كانت قدماه حافيتَين، راح يضمُّ البوص بقبضته. أخذ يحرك سكينته بحركات تدعو إلى الدهشة. تُرى هل أهتم بهذا حقًّا؟ كان حليقًا على الطريقة العربية، يضع على رأسه غطاءً صغيرًا من القش. وعندما سقطت الغندورة ظهر كتفه الدقيق، ووددت أن أحادثه، لكنني لم أفعل.

استدار نحوي وابتسم، أشرت له إشارة أن يعطيني الصفارة، ثم أمسكتها وأبديت إعجابي الشديد بها، إنه يود الآن أن يرحل، أعطته «مارسلين» كعكة، أما أنا فمنحته قرشين. وفي اليوم التالي — وللمرة الأولى — أحسست بالملل وأنا أنتظر. ترى ماذا أنتظر؟ أحسست بقلق، ثم تململت أخيرًا: ألن يأتي «بشير» هذا الصباح؟

– إذا أردته، فسوف أبحث عنه.

تركتني ونزلت، وبعد لحظة عادت وحدها.

ماذا أصابني من مرض؟ كنت حزينًا، لقد تضايقت حين رأيتها تعود بدون «بشير».

[1] كل ثوب متصل به غطاء للرأس.

قالت لي: الوقت متأخر، وقد غادر الصبية المدرسة وتناثروا في أماكن عديدة ... تعرف أنه جذاب، وأعتقد الآن أن الجميع يعرفونني.

– حاولي أن تأتي هنا غدًا على الأقل.

وفي اليوم التالي جاء «بشير»، وجلس مثلما فعل قبل البارحة، أخرج سكينه وأراد أن يشذب قطعة خشب صلدة، وراح يجاهد وهو يغرس فيها نصل السكين. انتابتني رجفة من السعادة، راح يضحك وهو يكشف السكين اللامع ويُحس بالفرحة وهو يراها تُسيل دمه. كشف عن أسنانه البيضاء وهو يضحك، وترك جرحه.

بدا لسانه ورديًّا كأنه لسان قط. آه! كم يبدو رائعًا! إنه يمتلك أشياء أفتقدها!

وكالصحة، فقد بدت صحة هذا الجسم الصغير على ما يرام. وفي اليوم التالي جاء ببعض البِلي، وأراد أن يلاعبني. لم تكن «مارسلين» هناك، ترددت وأنا أنظر إلى بشير. أمسك الصغير ذراعي، ووضع البلي بين يدي، لكنني لم أستطع الاستمرار، كنت بالغ التعب، ألقيت البلي وسقطت في مقعدي.

ارتبك «بشير»، وراح ينظر إليَّ، وقال بطريقته اللطيفة: هل أنت مريض؟

كانت رنة صوته حزينة ... وعندما عادت «مارسلين» قلت لها: خذيه، فأنا متعب هذا الصباح.

وبعد بضعة أيام من بصقي للدم رحت أمشي بصعوبة في الشرفة.

كانت «مارسلين» مشغولة بحجرتها، ولحسن الحظ فإنها لم ترَ شيئًا، أخذت ألهث بشدة وفجأة امتلأ فمي كله ... إنه ليس دمًا نقيًّا مثل باقي البصقات السابقة ... إنه كتل ضخمة مرعبة، بصقتها فوق الأرض بكل ازدراء. ومشيت بضع خطوات مترنحًا، وقد امتلأت بالتأثُّر.

ثم ارتجفت، فقد استبدَّ بي الخوف، وكنت غاضبًا، وتصورت حتى هذه اللحظة أن الشفاء سيحل بي، إنه ليس عليَّ سوى انتظاره.

حدث هذا الأمر كي يردني القهقرى، شيء غريب! البصقات الأولى لم تترك أثرًا فيَّ، أتذكر الآن أنها جعلتني هادئًا، فتُرى من أين يجيء خوفي ورعبي؟ هل يجيء في نفس اللحظة التي بدأت فيها أحب الحياة؟

عدت إلى الوراء، وانحنيت متطلعًا إلى بصاقي، أمسكت قشة، ورفعت الكتلة الدموية، ووضعتها في منديلي ونظرت إليها: إنها دم أسود، كتلة جيلاتينية مرعبة، فكرت في دماء «بشير» النقية.

وفجأة انتابتني رغبة وأمنية مثيرة للرعب أكثر مما أحسست طيلة حياتي حتى الآن: أريد أن أعيش، أن أعيش، أن أعيش! زممت أسناني، ورحت أطلق بقبضتي بكل قوة نحو الفراغ.

بالأمس جاءتني رسالة من «ت.» ثم رحت أرد على سؤال قلِق من «مارسلين»، كانت مفعمة بالنصائح الطبية إلى «ف. ت» ... بخطابه بعض الأوراق الطبية وكتاب متخصص، بدا لي أكثر جدية.

قرأت الرسالة — بلا مبالاة — وكأنني أكاد أن أطبعها، تقاربت هذه الأوراق مع كل المعنويات التي لصقت بي منذ طفولتي. فها هي ذي نصائح تقيدني. لم أفكر في أن هذه «النصائح الدرنية» و«علاج الدرن الفعال» يمكن أن تنطبق على حالتي، لم أظن نفسي مصابًا بالدرن، بل أرجعت أعراضي الأولية إلى أسباب عديدة، أو — بمعنى أصح — لم أرجعها إلى شيء. تجنبت التفكير فيها وحكمت على نفسي أنني قد شُفيت، أو شيء كهذا تقريبًا.

قرأت الكتاب وتصفحت أوراقه، وتعاملت معها فجأة بأسلوب مخيف، خُيِّل لي أنني لم أعتنِ بنفسي بما فيه الكفاية.

لقد تركت نفسي أحيا حتى تلك اللحظة، وتعلقت بأمل قوي، وفجأة بدت لي حياتي كأنها معرضة للهجوم، هجوم تحت الحزام، هناك عدو متعدد القوى مليء بالحيوية، ويعيش معي، أسمعه وأراقبه. وأحس به، لم أهزمه بدون مقاومة، وأضفت بصوت خفيض حتى أحاول أن أقنع نفسي:

إنها مسألة إرادة.

ووضعت نفسي في حالة عدوانية.

وعندما حل الليل رتبت أموري، ولبعض الوقت كان شفائي حالة من التمحيص، وكان همي صحتي، ويجب أن أكون في حالة أفضل، وكل ما يهمني أن أكون «بخير» وأن أنسى، وأن أدفع عني كل ما يثيرني؛ لذا فقبل أن أتناول وجبة المساء رحت أقوم بتمرينات تنفسية وغذائية، وأضع حلولًا للأمور.

تناولنا طعامنا في كشك صغير تحوطه الشرفة من كل الأنحاء، وجلسنا هادئين، وبعيدين عن كل شر مثير، وكانت المحبة التي تجمع مائدتنا رائعة، حمل إلينا زنجي عجوز من فندق مجاور الطعام المناسب، دققت «مارسلين» في قائمة الطعام، وأوصت على طبق، وتجاوزت بقية الأطباق.

لم أحِس بجوع شديد ولم أفتقد الأطباق الناقصة، ولا قائمة الطعام غير الكافية. لم تعتَد «مارسلين» على تناول الكثير من الطعام، ولا تعرف كيف تأخذ في حسبانها أنني لا آكل ما يكفيني؛ فالأهم هو أن آكل كثيرًا، وبأي طريقة. وأدعي أنني لم أنفِّذ ذلك في تلك الأمسية؛ لأنني لم أقدر.

كان أمامنا طبق من الأسماك الخليطة، ومشويات تمت تسويتها جيدًا. بدا سخطي شديدًا، أكثر مما بدا على «مارسلين»، رحت أنثر أمامها كلمات انفعالية وأنا أتهمها، بدت كأنها تسمعني، وأنها تحس بالمسئولية عن رداءة هذه الوجبات، وأن هذا التأخير البسيط للنظام الذي اتبعته أصبح ذا خطورة وأهمية.

نسيت الأيام الخوالي، فقد أفسدت هذه الوجبة الناقصة كل شيء، وتحجرت، وكان على «مارسلين» أن تنزل إلى المدينة لتبحث عن علب مأكولات محفوظة مهما كان نوعها.

وفي المساء لم تَعُد الوجبات في أفضل حالاتها، برغم أنها أكثر عددًا، كانت هناك وجبة كل ثلاث ساعات، الأولى في السادسة والنصف، وكان علينا أن نحتفظ بمعلبات من كل الأنواع، وأن نطلب عينة من كل أطباق الفندق.

لم أستطع النوم هذا المساء، وانتابتني مشاعر جديدة عن فضائلي الجديدة. أعتقد أن حمى أصابتني، كانت هناك زجاجات مياه معدنية، شربت زجاجة وأعقبتها بأخرى، ثم الثالثة مرة واحدة.

تغلبت على إرادتي، وأمسكت على عدوانيتي، وواجهتها قبالتي، وكان عليَّ أن أناضل من أجل كل شيء، فصحتي تخصني وحدي.

وأخيرًا رأيت الليل مصابًا بالشحوب، ومن شحوبه يتولد النهار، إنها صحوة قوتي. كان اليوم التالي هو الأحد، لم أكن قلقًا آنذاك بشأن إيمان «مارسلين»، أو اختلافاتها، أو عفتها.

بدا لي أن هذا ليس مسألة نقاش؛ لذا لم أعلق به أهمية، ففي هذا اليوم توجهت «مارسلين» إلى القداس، وعلمت عند عودتها أنها صلت من أجلي. دققت النظر فيها، ثم قلت بكل ما أمتلك من رقة: يجب ألا تصلي من أجلي يا «مارسلين».

قالت بشيء من الاضطراب: لماذا؟

– لا أحب هذه الأمور.

– هل ترفض مساندة السماء؟

– لا شك أنني أعترف بالجميل، لكن هذا يسبب متاعب قد لا أريدها.

بدَونا كأننا نمزح، لكننا لم نتطرق إلى أهمية كلماتنا.
تنهدت قائلة: لن تشفى وحدك يا صديقي المسكين.
– طبعًا.
أضفت وأنا أرى حزنها بلهجة أخف بشدة: سوف تساعدينني.

(٣)

تكلمت مرارًا عن جسدي، وسوف أتكلم عنه كثيرًا، مما سيجعلكم تتصورون أنني نسيت جزءًا من روحي؛ فإهمالي في هذا النص شيء إرادي، إنه هناك. لم يكن لديَّ ما يكفي من القوة للدخول في حياة مزدوجة، أما الروح فسوف أتحكم فيها فيما بعد عندما أشفى.

كنت متعبًا، وبلا سبب كنت أتصبب عرقًا، وبلا سبب كانت تتملكني رجفة البرد، كنت مثلما قال روسو: «لاهث النفس»، أحيانًا أُصاب بقليل من الحمى، ودائمًا تنتابني — خاصة في الصباح — مشاعر مرعبة ملولة، وأبقى دائمًا خائر القوى في مقعدي نافرًا من كل شيء، أنانيًّا، مهمومًا وأنا أتنفس بصعوبة. تنفست بضيق شديد، وبكل صعوبة.

كان زفيري يتصاعد إلى مرحلتين، أما إرادتي فلا يمكن الإمساك بها تمامًا، ولقد ظللت فترة طويلة أحاول أن أتجنب ذلك لفترة بكل ما أملكه من قوى. لكن الذي جعلني أعاني أكثر هو أن درجة حرارة مشاعري المرضية قد تغيرت كثيرًا.

أفكر وأنا أتذكرها الآن، إنها كانت حالة عصبية زادت من حدة المرض، لم أستطع أن أفسر أن هذه السلسلة من الأعراض ليست سوى حالة درن بسيطة؛ فقد كنت دائمًا إما بالغ السخونة أو بالغ البرودة، فأغطي جسمي بالمزيد من الأغطية، ولا أتوقف عن الارتعاد، وأتصبب عرقًا، ثم أنزع الغطاء قليلًا وأنا أرتجف من عدم القدرة على التنفس.

تتجمد أجزاء من جسدي وتصبح باردة — برغم العرق — في ملمسها وكأنها الرخام، لا شيء يمكنه أن يدفئها. كنت حساسًا للبرد لدرجة أن نقطة من الماء لو سقطت فوق قدمي وأنا في الحمام؛ فإنها تصيبني بنزلة شعبية، وحساسًا أيضًا للحرارة بنفس الدرجة، واحتفظت بهذه الحساسية، وظللت على هذا المنوال.

طَوال اليوم كان الأمر مثيرًا للمتعة، فكل حساسية حية، تبعًا للعضو عندما يكون قويًّا أو ضعيفًا، تصبح — على ما أعتقد — سببًا للذة أو الحرمان، فكل ما يسبب لي قلقًا أصبح يسبب اللذة.

لم أكن أعرف كيف يمكن أن أنام والنوافذ مغلقة (تبعًا لنصيحة ف.)

حاولت أن أفتحها في المساء قليلًا في البداية، ثم دفعتها على مصراعيها؛ لعل هذا سيصبح عادةً، لكن ما إن تنغلق النوافذ حتى أختنق، ومع بعض اللذة أحسست فيما بعد أني أدخل إلى نسيم الليل ونور القمر.

حدث أن انتهت هذه الثأثآت الصحية الأولى بفضل تلك العناية الشديدة، وذلك الجو النقي، وبنظام غذائي أفضل، وسرعان ما تحسنت. وحتى تلك الآونة كنت أخشى لهاث السلم، ولم أجرؤ على ترك الشرفة في الأيام الأخيرة من يناير، ثم أخيرًا غامرت بالنزول إلى الحديقة.

اصطحبتني «مارسلين»، وهي تضع شالًا على كتفها.

كانت الساعة الثالثة مساءً، والرياح تهب شديدة في هذا البلد، مما ضايقني طَوال الأيام الثلاثة، لكن نسمة الهواء كانت بديعة.

إنها حديقة عامة يقطعها ممر واسع، ويظلله صفان من النخيل العالي الذي يسمونه بالخزائن، وفي ظل هذه الأشجار توجد مقاعد وقناة نهرية صغيرة، أعني أن عمقها أكبر من اتساعها، على مقربة من اليمين ممر طويل، ثم هناك قنوات أخرى أقصر تقسم مياه النهر، وتصلها عبر الحديقة نحو النباتات، والمياه الراكدة بلون الأرض، لون الصلصال الوردي أو الرمادي.

لا يوجد غرباء. هناك بعض العرب يتنزهون، الذين ما إن يتركوا المكان حتى تكتسي معاطفهم بلون الظل. تملكتني رعشة غريبة عندما دخلت منطقة الظل، تلفحت بالشال، لم أُحس بأي ألم، بل على العكس، جلسنا فوق أريكة، والتزمت «مارسلين» الصمت.

مر بعض العرب، وتبعتهم مجموعة من الأطفال، كانت «مارسلين» تعرف كثيرين منهم، وراحت تحييهم، فاقتربوا منها.

أبلغتني بأسمائهم، ودارت بينهم أسئلة وإجابات، وابتسامات وتجهمات، وألعاب صغيرة، كل هذا حركني قليلًا، إلا أنني أحسست مرة أخرى بالضيق، وتصبب العرق في بدني.

سألت نفسي: ترى فيم يعنيني هذا؟ إنهم ليسوا سوى أطفال، وهي أيضًا، نعم إنها تتصرف هكذا، ضايقني وجودها؛ فلو قمت من مكاني راحت تتبعني، وإذا نزعتُ الشال عني تجعلني ألبسه، وإذا خلعته بعد ذلك تقول: «ألست مصابًا بالبرد»؟ ثم تتكلم إلى الأطفال.

لم أجرؤ أن أكلمهم، أحسست أنها تحميهم رغمًا عني؛ ولذا أحسست أن علينا أن نرحل. قلت لها: «هيا بنا إلى المنزل.» وقررت أنني لو عدت إلى الحديقة مرة أخرى فسأفعل ذلك وحدي.

في اليوم التالي خرجت في نحو العاشرة صباحًا، وسرعان ما انتهزتُ الفرصة، جاء «بشير» يرفع شالي، وهو الذي لم يَعُد يأتي إلا قليلًا، أحسست أنني خفيف الحركة، وأن قلبي يطير في الهواء، كنا قريبًا في المشى، أسير ببطء، أجلس لحظة وأعاود المشي. يتبعني «بشير».

وصلت إلى ناحية النهر، حيث تقوم الغسالات بالغسيل، ووسط التيار كان هناك حجر مسطح نامت فوقه فتاة صغيرة، قد مالت بوجهها نحو المياه، وغمست يدها في التيار، لعلها سقطت فيها، أو وضعتها عن طيب خاطر، وقد لمست قدماها الحافيتان المياه، إنها تود أن تبلل نفسها من هذا الحمام، ويبدو جلدها كأنه محفور.

اقترب منها «بشير» وراح يكلمها، استدارت وابتسمت لي، وردت على «بشير» باللغة العربية. قال لي: إنها أختي. ثم أخبرني أن أمه ذهبت للغسيل وأن أخته الصغيرة تنتظرها، وأن اسمها «خضراء». قال كل هذا بصوت رخيم وواضح، وطفوليٍّ المشاعر، ثم أضاف: إنها تطلب أن تمنحها قرشين.

أعطيته عشرة، وبينما أستعد للرحيل وصلت الأم (الغسالة) وكانت امرأة رائعة بدينة، وعلى جبهتها وشم كبير أزرق، ترتدي قلنسوة من الكتان فوق رأسها تبدو أشبه بحاملات القرابين القديمات، وقد تحجبت قليلًا بقماش أزرق غامق حوله حزام يتدلى حتى قدميها.

وما إن رأت «بشيرًا» حتى أشارت له متجهمة، ورد بعنف، وتدخلت الفتاة الصغيرة. دار بين الثلاثة نقاش مليء بالحيوية، ثم راح «بشير» أخيرًا يفهمني أن أمه في حاجة إليه هذا الصباح.

مدَّ لي يده بالشال وقد ارتسم عليه ضيق؛ لذا كان عليَّ أن أستكمل مشواري وحدي. لم أتحرك سوى عشرين خطوة، وبدا الشال ثقيلًا لا يتحمل، وتصببت عرقًا وجلست فوق أول مقعد قابلني، وتمنيت لو ظهر صبي يخفف عني هذا الحمل، وكان أول طفل ظهر في الرابعة عشر من عمره تقريبًا، أسود كأنه سوداني، وبدون خجل قدمت نفسي له.

اسمه عاشور، بدا لي جميلًا رغم أنه أعور، يحب الحديث، وأخبرني أنه قادم من ناحية النهر، وأنه بعد الحديقة العامة توجد واحة يخترقها النهر، نسيت تعبي وأنا أسمعه، أكثر خفة مما بدا لي «بشير»، اقترب مني أكثر، وبدوت سعيدًا لأن الأشياء تغيرت، وعدته أن

أنزل مرة أخرى إلى الحديقة وحدي وأن أنتظره، أن أجلس فوق مقعدي، وأنتظر أن تحين مصادفة لمقابلته. بعد أن توقفت مرات عديدة وصلنا أنا وعاشور أمام بابي، وددت أن أدعوَه للصعود مرة، لكنني لم أجرؤ، فأنا لا أعرف ماذا ستقول «مارسلين».

وجدتها في صالة الطعام جالسة على مقربة من طفل صغير هزيل يبدو نحيفًا، لم أشعر نحوه في البداية إلا بالاستياء أكثر من الشعور بالشفقة، وبكل حياء قالت «مارسلين»: مسكين هذا الصغير فهو مريض.

– أتمنى ألا يكون مرضه معديًا … ماذا به؟

– لا أعرف بالضبط، إنه يشكو من كل شيء، ويتكلم الفرنسية بصعوبة. عندما سيكون «بشير» هنا غدًا سنطلب منه تفسيرًا لما فعله، وسأجعله يتناول الشاي.

وكنوع من الاعتذار — ولأنني جلست بعيدًا بدون أن أتكلم — أضافت: إنني أعرفه منذ وقت طويل، ولم أجرؤ أن أجعله يأتي، أخشى أن يسبب لك تعبًا، أو لا يروق لك. قلت: لماذا؟ أحضري كل الأطفال كما تريدين، يبعثون على التسلية.

وفكرت أنني لم أتصرف بشكل جيد عندما لم أجعل عاشورًا يصعد.

نظرت إلى زوجتي، تبدو أمًّا حنونًا مداعبة، بدت رقتها مؤثرة نحو الصغير، حدثتُها عن نزهتي، ورحتُ أفهِّم «مارسلين» بكل رقة سبب خروجي وحدي.

اعتقدت أن تكون ليالي مليئة بالأزمات التي توقظني وقد تثلج جسدي أو تصبب عرقًا، كانت هذه الليلة رائعة، وتقريبًا بلا أزمات؛ لذا ففي صباح اليوم التالي استعددت للخروج في الساعة التاسعة.

كان الجو جميلًا، وأحسست أنني في حال أفضل، وأنني أقل ضعفًا وسعيد، وأنني أنشد التسلية.

بدا الجو هادئًا ودافئًا، ومع ذلك أخذت الشال بدافع الاحتياط، ربما ليكون حجة للتعرف على شخص يحمله عني. قلت: إن الحديقة تكاد تمس شُرفتنا، وسرعان ما دخلت في ظلها. بدا الجو صحوًا، واكتست أشجار السنط بالأزهار قبل أن تكسوها الأوراق، فبعث في المكان رائحة مجهولة تثير البهجة في داخلي، وتنفست بكل ارتياح وبدت خطواتي أكثر خفة، ومع ذلك جلست فوق أول مقعد أكثر نشوة من الأمس، رحت أنظر حولي، وبدا الظل مناسبًا وخفيفًا وهو ينبسط فوق الأرض، وبدا كأنه محفور هناك.

آه أيها الضوء! إنني أسمعك. ترى ماذا أسمع؟ لا شيء، بل كل شيء، رحت أتسلى بسماع الأصوات البعيدة، وأتذكر الشجيرات التي تبدو جذوعها من بعيد أشبه بكائنات غريبة عليَّ، أن أقوم كي ألمسها.

مسستها وكأنني أداعبها، وجدتها رائعة، وتساءلت: ترى هل ولدت من جديد هذا الصباح؟ نسيت أنني وحدي، لم أنتظر شيئًا، نسيت الزمن، بدا لي أنني أحس أكثر مما أفكر، وأنني مندهش لهذه النتيجة، فعلى إحساسي أن يكون أقوى من فكري.

ها هي ذي آلاف الأضواء تتولد، وتتناثر آلاف الأحاسيس، وها هي ذي أحاسيس تسمح لي بالتوقُّد، وتمكن فيها قصة الماضي بأكمله، تعيش فيه، تحيا! لم تكفَّ قط عن العيش، وتكتشف نفسها عبر سنوات دراستي، حياة كامنة ومشرفة لا مثيل لها.

لم أقابل أحدًا طيلة هذا اليوم، وفكرت في الراحة؛ لذا أخرجت من جيبي كتاب «هوميروس» الصغير، الذي لم أفتحه منذ رحيلي إلى مارسيليا، وقرأت ثلاث عبارات من «الروسية»، وجدت فيها مادة كافية لراحتي، ثم طويت الكتاب، أصابتني رعشة جسدية أكثر حيوية مما كنت أظن؛ ولذا رحت أبعد عني الخمول الذي كان يسبب لي السعادة فيما قبل.

(٤)

في تلك الآونة لاحظت «مارسلين» — وهي سعيدة — أن صحتي قد رُدَّت إليَّ، وبدأت — لبضعة أيام— تحدثني عن بساتين الواحة الرائعة.

إنها تحب الهواء الجميل والمشي، أما الحرية التي افتقدتها في مرضي فقد سمحت لها بممارستها طويلًا كما تشاء، وحتى تلك الآونة لم نكن نتكلم كثيرًا، ولم تجرؤ أن تحثني على أن أتبعها، وكم خشيت أن تراني مغموسًا في حزني وأنني غير قادر على التمتع بوقتي، ولكنني الآن أصبحت في حال أفضل، واعتمدت على جاذبيتها كي تجعلني أمتثل، وسرعان ما أحسست بحلاوة المشي والتطلع حولي؛ لذا فبدايةً من اليوم التالي خرجنا معًا للنزهة.

سبقتني في طريق غريب، لم أرَ مثله في أي بلد آخر، يدور بين جدارين مرتفعين عن الأرض، وقد اتخذ شكل الحدائق والتي راحت تحددها الجدران.

ينحني الطريق ثم ينكسر، وعند بداية المدخل توجد انحناءة تجعلك تشعر بأنك تائه، ولا تعرف من أين ولا إلى أين الطريق.

أما المياه فتبدو قادمة من النهر وتتبع المجرى بطول الجدران التي تصنع الطريق من الأرض، إنها الواحة الداخلية، أما الصلصال الوردي أو الرمادي الرقيق فإن المياه تجعله أكثر ليونة، في حين أن الشمس الحارة تسبب الانزعاج وتنشر الحرارة، لكنها لا تلبث أن تسترخي عند قطرات المطر الأولى، وتصنع عندئذٍ أرضًا هشة تغوص فيها الأقدام الخلفية.

عندما اقتربنا طارت العصافير، فراحت «مارسلين» تنظر نحوي وقد انتابتها نشوة عارمة. نسيت تعبي وضيقي، وسرت صامتًا وأنا أشعر بالمتعة والخفة والانشراح، في هذه اللحظات كان اللهاث خفيفًا. وراح النخيل يهتز، ورأيت النخيل العالي ينحني، ثم ساد الجوَّ سكون، سمعنا صوت ناي قادمًا من خلف الحائط، رحنا نتتبعه، ودخلنا من فتحة وراء حائط.

إنه مكان ظليل مليء بالضوء والهدوء يبدو لي كمأوى يهرب إليه المرء من الزمن، مليء بالصمت والأنين، وتسمع فيه أصوات المياه المناسبة التي تروي النخيل، وتنساب من شجرة لشجرة، وتنادي طيور «الترغلة» بلغة خاصة تتغنى على أنغام ناي ينفخ فيه طفل صغير.

إنه حارس لقطيع من الماعز، كان جالسًا فوق جذع نخلة مكسورة، لم ينزعج لظهورنا، ولم يهرب، ولم يتوقف عن العزف إلا للحظة. ولاحظت أثناء الصمت القصير أن نايًا آخر يرد عليه، وتقدمنا قليلًا ثم قالت «مارسلين»: ليس مهمًّا أن نذهب أبعد من ذلك، فهذه الخضرة تتشابك معًا عند أطراف الواحة، ترى هل ستصبح أكثر اتساعًا؟ وافترشت الشال أرضًا وقالت: استرخِ.

لا أعرف كم من الوقت بقينا، ولا كم ساعة؟ كانت «مارسلين» قريبة مني، فتمددت. ووضعت رأسي فوق ركبتيها، وانطلق عزف الناي، يتوقف لحظات ثم يعاود الانطلاق ثانيةً متلاحمًا مع خرير المياه.

أحيانًا تزعق إحدى الماعز فأغلق عيني، وأحس بيدي «مارسلين» المنعشة فوق جبهتي، وأحس بالشمس الحارة تتسلل من بين النخيل، وللحظات عادت الضجة من جديد، وفتحت عيني، إنها الرياح الخفيفة تهب من بين النخيل، إنها لا تنزل إلينا ولا تحرك سوى النخيل العالي.

في صباح اليوم التالي عدت إلى نفس الحديقة مع «مارسلين»، وفي مساء نفس اليوم عدت إليها وحدي، كان هناك راعي الماعز الذي يعزف على نفس الناي، اقتربت منه وكلمته، كان يدعى «لطيفًا»، وفي الثانية عشرة من عمره.

كان جميلًا وأخبرني باسم ماعزه، وقال: إن القنوات تُسمى «ساقية»، وإن المياه لا تجري فيها دومًا، فالمياه تجف أحيانًا، وتجعل النباتات مصابة بالعطش ثم ما تلبث أن تعود إليها، وفي أسفل كل نخلة هناك حفرة صغيرة تلتقط المياه وتروي الشجرة، إنه نظام إلهي عبقري.

راح الطفل يتحدث عنه وكأنه يعزف، وشرح لي أن السيطرة على المياه جاءت من فكرة وجود العطش الأكبر.

وفي اليوم التالي رأيت شقيق «لطيف». كان أكبر منه سنًّا وأقل جمالًا، كان يدعى «هاشمي». ومن خلال سلم خاص مصنوع فوق لحاء النخلات القديمة المقطوعة، رأيته يتسلق النخلة، ثم ينزل بسهولة، ورأيت تحت معطفه الطائر ملابسه المذهبة.

راح يأخذ لأعلى الشجرة — التي لا حواف لها — إناءً من الطين كي يضعه فوق جروح النخيل ويستخرج منها عصارة أشبه بالنبيذ اللذيذ الذي يعجب كل العرب، إنه عرق البلح. تذوقته بدعوة من «هاشمي»، لكن هذا الطعم «الماسخ» الحار واللاذع لم يعجبني.

في الأيام التالية رحت بعيدًا، ورأيت حدائق جديدة، ومراعي أخرى، وبعض قطعان الماعز، وكما قالت لي «مارسلين»؛ فإن كل الحدائق متشابهة ومع ذلك تبدو مختلفة.

كانت «مارسلين» تصحبني هناك أحيانًا، ولكن — غالبًا — ما إن تدخل الحدائق حتى تتركها، وأدعي أن التعب قد أصابني، وأنني أريد الجلوس، وعليها ألا تنتظرني؛ لأنها في حاجة للمشي أكثر، ويجب ألا تنهي نزهتها.

أبقى قريبًا من الصغار الذين تعرفت على العديد منهم، فأتحدث معهم طويلًا، وأتعلم ألعابهم، وألقنهم ألعابًا أخرى أفقد فيها كل قروشي، ويصحبني بعضهم إلى مسافات بعيدة «كنت أطيل خطواتي كل يوم» وأمشي في طريق جديد، وأنا أرتدي معطفي وشالي، وأحيانًا الاثنين، وقبل أن أتركهم أوزع عليهم قطع النقود؛ فيروحون يتبعونني أحيانًا حتى باب منزلي، وأحيانًا يمرون من هناك.

راحت «مارسلين» — من ناحيتها — تأتي بالتلاميذ وتشجعهم على العمل — بعد الخروج من المدرسة — حيث يأتيها العقلاء منهم، وأكثرهم رقة، أما أنا فكنت أصحب معي آخرين وأجمعهم كي نلعب معًا، نهتم دومًا بإعداد المشروبات والحلوى، فيما بعد كان البعض يأتي من تلقاء نفسه حتى وإن لم ندعُه.

في آخر شهر يناير تغير الجو فجأة، وهبت رياح باردة، وعلى الفور تأثرت صحتي، وانكشف الفضاء الواسع الذي يفصل الواحة عن المدينة، ولم يصبح الجو بالنسبة لي منعشًا، وصار عليَّ أن أبتعد عن الحديقة العامة، ثم راحت السماء تمطر مطرًا جليديًّا قادمًا من كل الآفاق، فمن الشمال هب الجليد الذي يغطي الجبال تمامًا.

قضيت هذه الأيام الحزينة قريبًا من المدفأة، أناضل — قدر الإمكان — ضد المرض الذي انتصر عليَّ في هذا الجو الرديء.

كانت أيامًا مريرة، لم أستطع فيها أن أقرأ ولا أعمل، كان أقل جهد يجعلني شديد اللهاث، أما التأمل فكان ينهكني، إذا لم أسهر على صحتي أشعر بالاختناق.

كان الأطفال طوال هذه الأيام الحزينة هم سلوتي الوحيدة، ففي الأيام الممطرة اشتدت العلاقات الأسرية، وجاءوا يومًا وقد ابتلت ملابسهم، وجلسوا نحو النيران يصنعون دائرة، ومر وقت طويل بدون أن يتكلموا، وكنت متعبًا للغاية، أعاني من شيءٍ ما، فلم أنظر إليهم.

كانت صحتهم الطيبة تبرئني، أما «مارسلين» فقد أخذت تقول: إنهم ضعفاء، ونحفاء، وبالغو التعقل.

شعرت بالغضب عليها وعليهم، وودت أن أطردهم؛ لأنهم كانوا يسببون لي الخوف. ذات صباح اشتد غضبي على نفسي، فمختار هو الوحيد الذي لم يضايقني قط، وكانت امرأتي تدافع عنه؛ لأنه أكثرهم جمالًا.

جلس معي في غرفتي، بدت نظرته ذكية ومليئة بالحزن، وانتابني فضول دفعني بمراقبة حركاته، كنت واقفًا على مقربة من النار، وقد أسندت مرفقي فوق المدفأة أمام كتاب، وبدوت منهكًا، لكنني أخذت أراقب حركات الطفل الذي يشعر بالبرد وأنا أوليه ظهري، رأيته يقترب من مائدة حيث وضعت «مارسلين» فوقها زوجًا من المقصات الصغيرة، فالتقطها خلسة، ثم وضعهما بين ملابسه.

خفق قلبي بشدة للحظة، لا أعرف لماذا لم أحس في داخلي نحوه بالغضب، بل على العكس؛ فإنني أؤكد أن الشعور الذي انتابني كان شيئًا آخر غير الفرحة.

لقد تركت لمختار الفرصة أن يسرقني، استدرت نحوه وتحدثت إليه كأن شيئًا لم يكن، لا شك أن «مارسلين» تحب هذا الغلام كثيرًا؛ لذلك لم أفعل شيئًا.

لعلي خائف أن أؤلمها، عندما سأراها سوف أحدثها عن ضياع المقصين، وأخبرها أنني لا أعرف شيئًا، لكنني أجزم أنه منذ هذا اليوم أحسست أن مختار هو طفل «مختار».

(٥)

لم يكن مقدرًا لإقامتنا في «بسكرة» أن تستمر لفترة أطول، فقد انتهت أمطار فبراير، وانطلقت الحرارة بكل قوتها، وبعد أيام عديدة عسيرة عشناها تحت زخات المطر، صحوت فجأة ذات صباح وقد علتني البهجة، وما إن استيقظت حتى جريت نحو الشرفة العليا، بدت السماء نقية بطول الأفق، وتحت أشعة الشمس الحارة تصاعدت الأبخرة وانطلق الدخان في جميع أركان الواحة، سمعنا زمجرة بعيدة عن الوادي، كان الجو نقيًّا وجميلًا، وأحسست أنني أفضل بكثير.

وعندما جاءت «مارسلين» وددت الخروج، لكن الطين في ذلك اليوم أعاقنا.

وبعد أيام من عودتنا إلى «كرمة نصيف» بدت جذوع الأشجار ثقيلة ومنداة وغارقة في المياه. هذه الأرض الإفريقية — التي لم أعرفها قط — تغطس لأيام طويلة، وها هي الأخرى تهب من الشتاء ثملة من الماء، وتنفجر من بين العصارات الجديدة، وتضحك لقدوم ربيع قوي أحسست بعطره وكأنه يتعاظم في داخلي.

اصطحبنا عاشور ومختار في البداية، سعدت لصداقتهما العابرة، فهي لم تكلفني سوى نصف فرنك يوميًّا، لكنني — فيما بعد — شعرت بالملل منهما.

انتابني الإحساس أنني أكثر ضعفًا وفي حاجة إلى صحة كصحتهم، ولم أجد في ألعابهم الدافع اللازم كي أكون مبتهجًا، وعدت إلى «مارسلين» لاهثًا بأملي وبأحاسيسي، وغمرتها بهجة حلت مكان حزن رأيته يجثم عليها.

اعتذرت كطفل دائم الخطأ، وأرجعت ذلك إلى ضعفي ومزاجي «الفالت» والغريب، وأكدت أنني — حتى الآن — كنت بالغ التعب كي أحب، ولكنني منذ الآن فصاعدًا أحس أنني أنمو مع صحتي وحبي، تكلمت بصدق، كنت بلا شك ضعيفًا، وأمامي شهر على الأقل كي أشتهي «مارسلين».

ومع كل يوم ترتفع درجات الحرارة ولا شيء يربطنا بـ «بسكرة» سوى هذا السحر الذي يذكرنا على التو بقرارنا بالرحيل الذي تم اتخاذه، وخلال ثلاث ساعات استعددنا، وفي فجر اليوم التالي أقلع القطار.

أذكر الليلة الأخيرة، فقد كان القمر شبه مكتمل، وراحت أشعته الفضية تدخل من نافذتي الكبيرة المفتوحة وإلى غرفتي، كانت «مارسلين» نائمة، أما أنا فَرُحت أفكر، وكنت متمددًا لا أستطيع النوم.

أحسست بحمى تلهبني من السعادة وأنه ليس هناك في الدنيا سوى الحياة ... قمت مرتعدًا وقد نضح وجهي ويداي بالعرق، ثم دفعت الباب الزجاجي وخرجت.

كان الجو متأخرًا، لا ضجيج، ولا همس. يبدو الجو نائمًا أيضًا، وأكاد أسمع صوت الكلاب يأتي من بعيد وكأنها ابن آوى، كانت تنبح طيلة الليل. أمامي الحوش الصغير والأسوار الواطئة تحدث ظلالًا مائلة، والنخلات — كعادتها — بلا أي لون ولا حياة، هناك لا يبدو شيء نائمًا، كل شيء يبدو ميتًا، أحس بالخوف من هذا الهدوء الذي راح يغزوني فجأة من جديد كنوع من الاحتجاج.

والوحشة في الصمت موحشة لدرجة تدفعني للصراخ كالحيوانات.

أمسكت يدي اليسرى بيدي اليمنى، وأردت أن أحملها إلى رأسي، وفعلت، لماذا؟ كي أؤكد لنفسي أنني على قيد الحياة! ووجدت هذا رائعًا، لمست جبهتي ورموشي، وامتلكتني رعشة. سوف يحل يوم جديد.

فكرت في أن يومًا آخر سيأتي، وكي أوفر لشفتي المياه التي تروي عطشي، فيجب أن تكون لديَّ القوة الكافية، عدت ولكنني لم أنم أيضًا، وأردت أن أثبت نفسي هذه الليلة، وأن أركز الذكرى في فكري، وأن أمسك بها، وتحيرت فيما سأفعله، أمسكت كتابًا من فوق مائدتي — الإنجيل — وتركته مفتوحًا، واتجهت إلى نور القمر؛ كي أتمكن من القراءة، وقرأت كلمات السيد المسيح إلى بيير، هذه الكلمات التي لا يمكن أن أنساها: «الآن، حزم نفسك، واذهب حيث تشاء، ولكن عندما تصبح عجوزًا، امدد يديك …»

وفي فجر اليوم التالي رحلنا.

(٦)

لن أتكلم عن كل مرحلة من السفر، خاصة تلك التي لم تترك ذكرى مؤثرة، كانت صحتي أحيانًا أفضل، وأحيانًا أسوأ، تتأثر لتوها بالرياح الباردة، وتقلقلها ظلال السحب، وترتبط حالتي العصبية بالمتاعب المتكررة، ولكن رئتي — على الأقل — قد شفيتا، وأصبحت كل انتكاسة أقل طولًا وأقل حدةً، وعندما يكون هجومها شديدًا يصبح جسدي مسلحًا ضدها.

توجهنا من «تونس» إلى «مالطا»، ثم إلى «سيراكوزه»، ثم عدت إلى الأرض الكلاسيكية التي كنت أعرف لغتها وماضيها.

منذ بداية ألمي عشت بلا امتحان وبلا قانون يجبرني أن أعيش ببساطة، مثلما يفعل الأطفال والحيوانات. أنشغل الآن أكثر بالألم، وأصبحت حياتي أكيدة وواعية، وبعد هذه المعاناة الطويلة، أعتقد أنني قد ولدت من جديد، وفصلت ماضيَّ عن حاضري، وجدت نفسي جديدًا في أرض مجهولة، يمكن أيضًا أن أكون منهكًا، فكل ما تعلمته هنا فاجأني: إنني قد تغيرت تمامًا.

عندما أردت — في «سيراكوزه»، وفيما بعد — أن أستكمل دراستي، وأن أغوص مثل غابر الزمان في امتحان الماضي، اكتشفت أن شيئًا قد استلب مني، على الأقل فيما يتعلق بتغيير الذوق، إنه شعور الحاضر الذي يأخذ بتلابيب تاريخ الماضي، الآن يبدو هذا السكوت وهذه الظلام المزيفة النابتة في أحواش «بسكرة» كسكون الموت، قبل أن أعجب بهذا الثبات الذي قد يسمح بالتأمل الروحي، تبدو لي كل وقائع التاريخ أشبه بقطع قديمة في متحف

أو نباتات في مرعًى يساعدني جفافها الظاهر في النسيان ذات يوم، بأنها كانت غنية وبالعصارة، لقد عاشت تحت الشمس.

الآن إذا أردت أن أعجب بالتاريخ فيجب أن أتخيله على أنه حاضر، يجب أن تحركني الوقائع السياسية الكبرى أكثر من الأحاسيس التي يولدها فينا الشعراء، وبعض صانعي الأحداث. أعدت قراءة «ثيوقراط»، وفكرت أن مراعيه الجميلة أشبه بتلك التي أحببتها في «بسكرة».

كان تنقيبي في العلم يتيقظ كل يوم ويتراكم عليَّ، ويُثري بهجتي، لا أستطيع أن أرى مسرحًا إغريقيًّا ولا معبدًا بدون أن يبدو لي تجريديَّ الشكل، وفي كل عيد قديم تجعلني الأطلال الباقية في مكانها أشعر بالحزن لأنها ماتت؛ فأرتعد من الموت. هربت إلى هذه الأطلال وفضلت آثار الماضي الجميلة على هذه الحدائق التي تُسمى بـ «اللاتومي»، التي يبدو فيها الليمون ذا طعم حمضي أحلى من البرتقال. وتمتد سواحل «سينثيا» المذكورة في أوراق البردي في زرقة النهار، والتي جعلت العاشق «بروزبرن» يبكي.

بلغت درجة اختفاء هذا العلم في نفسي حدًّا صنعه كبريائي في أول الأمر، هذه الدراسة التي اعتبرت بمثابة حياتي في أول الأمر لم تبدُ لي أكثر من تقرير جاء من قبيل المصادفة، ومتناسبًا معي، وبعد أن لمسني جناح الموت فقد كل شيء هنا بريقه، في حين أصبحت أشياء أخرى أكثر أهمية، وهي لم تبد قط هامة، ولم يعرف أحد أنها موجودة، إنها كومة مكدسة فوق روحنا من كل المعارف ترزح كعبء ثقيل، وفي نفس المكان نرى الجسم عاريًا، والوجود الحقيقي مختفيًا.

فقد اكتشف هذه الأمور التي أزعمها، أعني الوجود الحقيقي للإنسان القديم الذي لم يكن سبق الإنجيل، من كتب الأجداد والآباء.

في البداية حاولت أن أختصرها، بدت لي آنذاك — بسبب الأعباء — أكثر إحباطًا وصعبة الاكتشاف، وذات قيمة منذ ذلك الحين احتقرت وجودي الهامشي وعلمت أن المصير مكتوب في السماء، وأننا يجب أن نهز هذه الأثقال عنا. بدأت أقارن نفسي بالأوراق الممسوحة، وتذوقت فرحة العالم الذي يكتشف في الكتابات المعاصرة كل ما كان مكتوبًا في الماضي من نص قديم جدًّا أكثر ثراءً.

ترى ماذا كان في هذا النص الخفي؟ هل يجب أن نمحو النصوص الحاضرة حين يجب أن نقرأه؟ وبرغم ذلك فلم أكن أكثر هزالًا ومهارةً عما كانت عليه معنوياتي فيما قبل، بل مليئًا بكل الصلابة والعناد اللازمَين. هناك في هذا المكان ما هو أكثر من النقاهة، هناك ارتقاء وانتكاس للحياة، وتدفق الدم الثري والأكثر سخونة، والذي عليه أن يلمس أفكاري،

يلمسها الواحدة وراء الأخرى، وأن يتغلب في كل شيء، ويثير المشاعر، ويصبغ أكثرها بعدًا عنا، وأكثرها حساسية وسرية لوجودنا؛ لأننا نمارسها ضعفاء أم أقوياء، ونجومها حسب القوى التي تشكلها. إذَن، فلتنم ولتتضخم قوتها. كل هذه الأفكار لم أمتلكها بعد، وتبدو هنا زائفة، فعلًا، فأنا لا أفكر في شيء، ولا أدقق في شيء. فكم أخشى ألا تزعج نظرة خاطفة للغاية كل ما ينتابني من تحوُّل بطيء.

علينا أن نترك الزمن بكل سماته المموهة أن يُعاود الظهور. وألا نحاول تشكيله، وأن أترك مخي جانبًا، ليس بدافع الإهمال ولكن فوق أرض الراحة الأبدية، تركت نفسي بشكل غريزي لأشياء بدت لي قدرية. لقد تركنا «سيراكوزه»، ورُحتُ أجري فوق الطريق الوعر الذي يربط «تاورمين» بـ «لامول»، وأنا أصرخ مناديًا على نفسي: كيان جديد! كيان جديد!

كان جهدي الأوحد هو ألا أكشف وأخفي — بشكل تلقائي — كل ما أومن به، وبما يتعلق بكياني الأسبق، وبمعنوياتي الأولى، بكل الحقارة الممكنة لعلمي، وبكل ازدراء لذوقي كعالم … لقد رفضت أن أرى معبد «أجريجنته» وبعد عدة أيام — وفوق الطريق المؤدي إلى نابولي — لم أتوقف عند معبد «بوستوم»، الذي تحس فيه حضارة الإغريق، والذي تحس فيه بحضارة الإغريق، والذي صليت فيه قبل عامين لإله لم أعرف كنهه.

هل يمكن أن أتكلم عن قوة فريدة؟ هل يمكن أن أهتم بنفسي وكأنني كيان كامل؟ هذا الكمال المجهول الذي أتخيله بطريقة مشوشة، لم تتحمس له إرادتي قط إلا من أجل لمسة، لقد قمت بتوظيف هذه الإرادة في داخلي وأنا أحصن جسمي، وأصبغه باللون البرونزي، قريبًا من «سالرينو»، وعندما تركنا الشاطئ توجهنا إلى «رافيلُو»، وهناك بدا الجو صحوًا، وبدت الصخور مليئة بالانكماش والمفاجآت، وأعماق العقيق الغامضة تساعدني في أن أسترد قوتي، وبهجتي، وأن أحقق قفزة للأمام.

بدت «رافيلُو» أكثر قربًا من السماء وبعيدة عن الشاطئ، وإنها تطل على حافة عالية، تبدو في مواجهة الشاطئ البعيد والمسطح وكأنها واقعة تحت السطوة النورماندية، وتبدو «بوستوم» وكأنها مدينة ذات أهمية، كانت تطل على شريط ساحلي ضيق، كنا نتقابل فيه نحن الغرباء على ما أعتقد في منزل ديني قديم، تحوَّل الآن إلى فندق قائم في قمة الصخرة وشرفاته وحديقته تبدو كأنها مائلة في السماء الصافية، وبعد الجدار المليء بالأغصان لا نرى شيئًا سوى البحر.

يجب أن نقترب من الجدار كي يمكن متابعة المنحدر المزروع الذي يربط «رافيلو» بالساحل بواسطة السلالم والممرات. تظهر الجبال في أعلى «رافيلو» وأشجار الزيتون،

وأشجار الخروب الكثيفة، وتنطلق الأبخرة في ظلالها. أما أشجار الكستناء فتبدو عالية وكثيفة.

هناك نباتات الشمال أكثر انخفاضًا، ومقابر قريبة من البحر، إنها مرتبة في زراعات صغيرة فوق المنحدر، إنها حدائق مدرجة، أو هكذا تقريبًا، في وسطها ممر ضيق، وفي أطرافها معبر يمكن الدخول إليه بلا أي ضجيج، كم يمكن للمرء أن يحلم تحت هذا الظل الأخضر، فالأوراق كثيفة وثقيلة، ولا يمكن لأي أشعة أن تخترقها، كأنها نقاط الورنيش الكثيف، أما الليمون فتنبعث روائحه، ويبدو في الظل أبيض أو مائل إلى الخضرة. إنها تكاد تُلمَسُ باليد، وتبعث على الانتشاء.

كان الظل كثيفًا، لم أجرؤ على أن أتوقف تحته بعد المشي كي ألتقط أنفاسي، فبرغم أن السلالم لم تنهكني كثيرًا؛ فإنني رحت أتنهد وأنا أغلق فمي، وكنت ألهث وأنا أقول لنفسي: سوف أصل إلى هناك بلا تعب، نعم سأصل إلى هدفي، وأجد مكافأتي في كبريائي السعيدة.

تنفست طويلًا، وبعمق شديد، وبطريقة تبدو لي كأن الهواء يدخل صدري ليغسله، أنا أولي العناية لكل جسدي المنضبط تمامًا، ثم أتقدم.

كم أندهش وأنا أحس بصحتي تُستَرَدُّ سريعًا، لدرجة أنني اعتقدت أنني كنت أبالغ في حالتي الصحية، وشككت أنني كنت مريضًا وضحكت من دمائي التي بصقتها، وأسِفتُ؛ لأن شفائي لم يستغرق سوى القليل من الوقت.

كانت عنايتي بنفسي بالغة الأهمية في البداية، وأنا أجهل حاجات جسمي، وتذرعت بالصبر، وتملكتني مهارة شديدة، لدرجة أنني رحت أتصرف وكأن الأمر لعبة، برغم كل الحذر والعناية، أما الذي جعلني أعاني كثيرًا فهو حساسيتي المرضية لأقل تغيُّر في درجات الحرارة، فبرغم أنَّ رئتيَّ الآن قد شُفِيَتا؛ فإنني يمكنني أن أغدو عصبيًّا، حساسًا للمرض، وأحاول أن أتغلب على كل هذا، وأن أرى البشرة تصطبغ وتخترقها أشعة الشمس، والناس الذين يعملون في الحقول يفتحون ستراتهم، وكأنهم يصبغون بشراتهم مثلي.

ذات يوم رحت أخلع ملابسي، وأخذت أنظر إلى نفسي. لم تجعلني رؤيتي لجسمي النحيف ولكتفي أستطيع أن أتراجع إلى الوراء؛ ولكن ملأني الخجل لجسمي الأبيض ولبشرتي التي تلونت، ورحت أذرف الدمع. وسرعان ما ارتديت ملابس. وبدلًا من النزول إلى «أمالفيا» مثلما اعتدت أن أفعل، توجهت إلى الصخرة مغطاة بالأعشاب والحشائش، بعيدة عن العمار، وعن الطرق، حيث أعرف أن أحدًا لن يراني، وهناك بدأت أخلع ملابس ببطء، وبدا الجو مليئًا بالحيوية، لكن الشمس حامية، رحت أقدم جسمي للهيبها. أجلس،

وأنام، وأدور. وأحسست بالأرض الصلبة من تحتي، تثيرني حركة الأعشاب المجنونة، وتحت الرياح كنت أرتعد، وأهتز لكل هبة ريح، وبدت سيقاني ضعيفة للغاية، وتوافد كل وجودي نحو بشرتي.

أقمنا في «رافيلُو» خمسة عشر يومًا، كنت أتوجه فيها كل صباح إلى هذه الصخور من أجل إجراء علاجي، وأصبح خلع ملابس التي تعطيني أمرًا ممتعًا ورائعًا.

وفي صباح أحد هذه الأيام الأخيرة «كنا في منتصف شهر أبريل» اشتدت جرأتي في منحنيات الصخور التي أتكلم عنها، رأيت نبعًا تنساب مياهه كأنه شلال، وإن كان يبدو ضعيفًا، لكن تحت الشلال هناك حفرة عميقة تتحرك فيها مياه نقية.

لقد جئت هنا ثلاث مرات، وتوقفت، وتمددت فوق الحافة، وقد غمرني العطش والرغبة، رحت أتأمل أعماق الصخرة مليًّا حيث لا يمكن أن نكتشف أي شائبة، ولا نبتة عشب واحدة، أما الشمس فهي لا تكاد تختفي حتى تعود. في هذا اليوم الرابع تقدمت نحو الماء، وكان عومي أكثر شدة من أي فترة سابقة، ودون أدنى تفكير غصت بكاملي في داخله، لكنني سرعان ما تركت المياه وتمددت فوق العشب تحت الشمس، هناك حيث تتشابك فروع النعناع المعطر ... رحت أجمعها، وأمسكت أوراقها ورحت أدعكها بجسمي المبلل الذي يحترق وأنا أنظر إلى نفسي بدون أي خجل، وبكل فرحة، لم أرَ نفسي فقط قويًّا، ولكن يمكنني أن أكون كذلك مليئًا بالتناسق والحسية والجمال.

(٧)

هكذا أحسست بالسعادة إزاء كل نشاط وكل عمل أقوم به، وللتمرينات الطبيعية التي جعلت معنوياتي تتغير. لم يَبدُ لي هذا أكثر من وسيلة للراحة لم تكن كافية لإرضائي.

هناك حدث آخر، لمسته عيونكم الساخرة، وهو أنني قمت بحلاقة شعري وأنا في «أمالفيا».

كنت قد احتفظت بلحيتي حتى هذا اليوم، وبشعر حليق تقريبًا، لم تنتابني الفكرة أنني سأكون أفضل لو قمت بتغيير تصفيف شعري، وفجأة في أول يوم تعرَّيتُ فيه فوق الصخرة، راحت هذه اللحية تضايقني، وكأنها قطعة أخيرة من الملابس لم أستطع أن أتخلص منها، أحسست كأنها مصطنعة برغم أنها كانت معقوصة بعناية، ليس إلى الحد اللازم، ولكن في شكل مربع، يبدو لي أيضًا غير مريح وعبثيًّا. عندما عدت إلى غرفتي في الفندق، نظرت إلى المرآة ولم أعجب بنفسي، كان مظهري حتى ذلك الحين أشبه بشخص أجريت عليه بعض التحسينات.

حين نزلت إلى «أمالفيا» كانت المدينة صغيرة للغاية، وكان عليَّ أن أتسوق من محل شعبي في الميدان، إنه يوم السوق. كان المحل مزدحمًا، وعليَّ أن أنتظر طويلًا، لكنني لم أجد شيئًا، لا الأمواس الحادة، ولا فرشاة الحلاقة الصفراء، ولا العطور، ولا أدوات حلاقة، لا يمكن أن أتراجع.

أحسست بلحيتي تسقط تحت تأثير المقصين، وكأنني أخلع متاعبي، ملأني الشعور أنني أصبحت أفضل، ليس من الفرحة، وإنما من الخوف، لم أفكر طويلًا فيما تملكني من شعور، فقد انتابني الخوف الذي بدا لي أنه يعري فكري، أحسست فجأة أنه شيء مشكوك فيه. وعلى العكس فقد أطلقت شعري.

هذا هو الشخص الجديد، شخص يُولد في داخله حَدَثٌ مدهش، ولكن فيما بعد قلت لنفسي إنه سيكون شخصًا بالغ الأهمية، عليه أن يحيا، وأن ينتظر، رحت أتأمل — مثلما فعل ديكارت — بطريقة يمكن السير على هداها، لدرجة أن «مارسلين» نفسها قد خُدِعَت حين شاهدتني، تُرى هل تغيرت نظرتي حقًّا، خاصةً في ذلك اليوم الذي ظهرتُ فيه بلا لحية؟ ربما أقلقتها ملامحي الجديدة، ولكنها تحبني كثيرًا حين تراني؛ لذا رحت أتصرف معها بأفضل ما يكون، فهي تحرص ألا تزعجني وهي تختلس نظراتها. لذا كان عليَّ أن أختفي.

وبرغم أن «مارسلين» كان عليها أن تحب من تتزوجه؛ فإن هذا ليس هو «كياني الجديد»، وقد قلت هذا مرارًا؛ كي أحرض نفسي على التخفي، ولم أكشف لها سوى صورة أكثر ثباتًا، وأمانة للماضي، لكنها أصبحت مزيفة يومًا وراء يوم.

ظلت علاقتي بـ «مارسلين» ثابتة، ونحن ننتظر، مهما حدث، يومًا وراء آخر. يكللها حب كبير. كان اختفائي (إذا كان علينا أن نسمي حاجة الجسم للتفكير بهذا الاسم) قد زاد، أعني أن هذه اللعبة قد شغلتني عن «مارسلين» بلا توقف، وربما أن كل هذا الكم من الكذب قد كلفني إيَّاها، ولكنني سرعان ما فهمت أن الأشياء التي تزايدت، كالكذبات، ولا شيء آخر عداها. لم تكن الممارسة، ولكنها أصبحت سريعة، ومبهجة، ومن الرقة أن نفعلها وتبدو أمورًا عادية.

وأيضًا بالنسبة لكل شيء يبدو فيه الفساد مهزومًا، بلغت درجة من الإحساس والمتعة في هذا الاختفاء لم أعرفها من قبل، مثل لعبة الشموليات المجهولة، وفي كل يوم رحت أتوغل في حياة أكثر ثراءً وأكثر امتلاءً، قادتني نحو سعادة كاملة.

(٨)

كان الطريق من «رافيلُو» إلى «سورنته» جميلًا مثلما تمنيت، ففي هذا الصباح بدا كل شيء جميلًا فوق الأرض، من انحدار الصخرة الحاد إلى انسياب الهواء والبساطة، كل شيء يملؤني بسحر رائع للحياة، ويكفيني إلى درجة أن مجرد نسمة خفيفة من السعادة تبدو وكأنها تسكن داخلي ... تنساب الذكريات والاعتذارات والآمال ومشاعر الخوف من المستقبل نحو الماضي، فأنا لم أعرف من الحياة سوى ما يأتي به الحاضر ... هتفت: «يا لها من فرحة!» وأحسست أن عضلاتي قد استردت عافيتها.

رحلت في ساعة مبكرة، سابقًا «مارسلين» التي بدا عليها الهدوء والارتياح أكثر مني، ولأن خطواتها تجعلني أُبطئ خطواتي، فقد راحت تلحقني بسيارة في «بوزيتانو» حيث كان علينا أن نتناول الغداء.

عندما اقتربت من «بوزيتانو» فوجئت — حين سمعت أصوات تروس — كأنها تشدو بأغنية غريبة، لم أرَ شيئًا في بادئ الأمر بسبب انحدار الطريق عند أطراف صخور الشاطئ، وفجأة برزت عربة على الطريق، إنها عربة «مارسلين»، كان الحوذي يغني ويمايل رأسه بحركات ظاهرة وهو واقف يضرب حصانه بوحشية جنونية. يا للبشاعة!

راح يمرق أمامي وكأن ليس لديه وقت، ولم يتوقف لندائي ... هرولت، ولكن العربة ولت الأدبار.

ارتعدت فجأة، انطلق الحصان، أرادت «مارسلين» الهروب، ولكنها وجدتني قريبًا منها، وما إن رآني الحوذي حتى استقبلني بشتائم بذيئة، أحسست بالغضب من الرجل، وعند أول شتمة قفزت عليه وألقيته بعيدًا. ورحت أدور معه فوق الأرض، ولم أفقد توازني.

بدا مبغوتًا بسقطته وبهذه اللكمة التي لكمتها في وجهه عندما أحسست أنه سيعضني، ومع ذلك لم أتركه، وضعت جبهتي فوق صدره. وحاولت أن أسيطر على ذراعيه، ونظرت إلى وجهه الذي زادت قبضتي من بشاعته، راح يبصق، وسال لعابه، ونزف وهو يشتم: آه، أيها المخلوق المرعب! بدا الخنق أمرًا شرعيًّا، ولعلي سوف أفعل ذلك ... على الأقل فقد أحسست أنني قادر على أن أفعل ذلك، وأعتقد أن فكرة وجود الشرطة جعلتني أتوقف.

وبكل صراحة ألقيته — وكأنه حقيبة — في العربة.

آه! يا لها من نظرة! ويا لها من قبلة تبادلناها! لم يكن الخطر جسيمًا، ولكن كان يجب أن أكشف عن قوتي لكي أحميها، شعرت أنني يمكن أن أهبها حياتي، وأن أعطيها كل السعادة ... بدا الحصان جائحًا، صعدنا إلى السياج معًا، ونحن في أحسن حال.

في هذه الليلة امتلكت «مارسلين».

هل فهمت كيف أقول إنني جديد في مسائل الحب؟ ربما لهذا طالت ليلة عرسنا حتى هذه الليلة ... لأنه يبدو لي — وفي ذاكرتي الآن — هذه هي أول ليلة تحول فيها الحب إلى لذة ومتعة، وأن ليلة واحدة تكفي لحب كبير، وطالما أن ذاكرتي تدفعني إلى أن أتذكر هذه الليلة فإن ضحكة انطلقت لحظة انغمست فيها أرواحنا ... لكن أعتقد أن هناك حبًّا فريدًا، وأن الريح تحاول — بلا جدوى — أن تتجاوز، وأن الجهد الذي يبذل لبعث سعادته على المرء أن يبذله، وأن لا شيء يحجب السعادة مثل الذكريات السعيدة. آه! كم أتذكر تلك الليلة!

كان فندقنا خارج المدينة محاطًا بالحدائق والرياض، وهناك شرفة واسعة لغرفتنا تملؤها الأغصان، يدخل الفجر من فتحاتها الواسعة، أتحرك برقة ولطف وأحتضن «مارسلين» وهي نائمة، أحس بنفسي أكثر قوة، أما هي فأكثر رقة وهشاشة، برغم أن بعض الأفكار الصاخبة تعصف برأسي، فكرت أنها لم تكذب حين قالت: إنني كل شيء في حياتها، ثم قلت توًّا لنفسي: ماذا فعلت كي أسعدها؟ فأنا أتركها دائمًا كل يوم، وهي دائمًا تنتظرني ... ملأت الدموع عيني، وبلا جدوى رحت أبحث وسط ضعفي السابق عن وسيلة للاعتذار، ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ ألست أقوى منها في هذه اللحظة الآن؟

لقد هجرت الابتسامة وجنتيها، وبرغم أنها تزين كل شيء، فإن الفجر بدا لي حزينًا وشاحبًا، وربما اقتراب النهار جعلني أحس بالشجن: هل جاء اليوم الذي يجب فيه أن أعتني بك؟ كم أنا قلق بالنسبة لك يا «مارسلين»؟ رحت أكتب ذلك في داخلي وأنا أرتعد، وقد امتلأتُ بالحب والشفقة والرقة، وطبعتُ بكل سكينة فوق عينيها المغلقتين، الأكثر شفافية، أحلى قبلات الحب.

(٩)

كانت الأيام التي عشناها في «سورنته» سعيدة وهادئة، لم أذُق قبل ذلك طعمَ هذه الراحة والسعادة، ولا أظن أنني سوف أتذوق مثلها فيما بعد! كنت دائمًا على مقربة من «مارسلين»، لم أعد أهتم بنفسي إلا قليلًا، انشغلت بها، أو رحت أبحث عن كل وسيلة لإسعادها. تلك السعادة التي وفرتها لي في الأيام السابقة حين كنت ملتزم الصمت.

أصابتني الدهشة حين أحسست أن حياتنا تائهة، كنت أتصور أنني أشعر برضاء تام، لم أكن أنظر إليها إلا كحالة مؤقتة، بدا لي أن هذا الإعراض عن الحياة ناتج من أنني

أصبحت لا أعطيها الوقت الذي تستحقه، ولأول مرة تولدت لديَّ رغبة للعمل من الفراغ، خاصةً أن صحتي قد تحسنت، ورحت أتكلم بجدية عن العودة، وعن الفرحة التي تبدو ظاهرة في «مارسلين»، وأدركت كم كانت تفتقدها منذ أمد طويل.

في تلك الآونة، بدأت بعض أشياء التاريخ تفقد مذاقها، وكما قلت لكم، فإنه منذ إصابتي بالمرض، فإن المعرفة المجردة والمحايدة للماضي بدت لي بلا جدوى، وفكرت أنني يمكن أن أنشغل بأبحاث «أبيولوجيا»، وأن أحدد — مثلًا — مدى تأثير «الغوطيين» على تفتيت اللغة اللاتينية، وأن أتجاهل وأهمل وجوه كل من «تيودوريك» و«كاسيدور»، وأما لسونت ومشاعرهم العظيمة حتى لا ألهث في البحث عن علامات محددة من حيواتهم.

الآن، فإن هذه العلامات من الفقه الكامل لم تكن بالنسبة لي سوى أفضل وسيلة لهذه الموهبة المتوحشة المتعاظمة، والتي تبدو نبيلة، صممت أن أنشغل بهذا العصر القديم، وأن أحدد إحدى الفترات الزمنية في السنوات الأخيرة من الإمبراطورية «الغوطية»، وأن أضع تصورًا عن المسرح.

ولكنني أعترف أن وجه الملك الشاب «أتارفيك» قد جذبني كثيرًا، تخليت عن هذا الطفل ذي الخمسة عشر ربيعًا وقد انغمس تمامًا مع الغوطيين، وهو يتمرد ضد أمه «أما لسونت» ثم يقاوم ضد تربيته اللاتينية، ويلقي عن كاهله بالثقافة كحصان يحمل سرجه كاملًا، ويفضل المجتمع الغوطي الدوني عن العجوز كاسيدور بالغ الحكمة، والذي تذوق لبضع سنوات — مع قسوة من هم في سنه — عنف الحياة ولذة الحرمان؛ كي يموت في الثامنة عشرة من عمره، وقد أفسد كل شيء بعد أن أسكرته الغواية، وجدت في هذه الفقرة المأساوية حالة أكثر وحشية وحسية، شيئًا ما مما كانت «مارسلين» تسميه وهي تبتسم بـ «قضيتي». كنت أبحث عن توافق أطبقه على روحي حتى لا أشغل جسدي. ومن خلال موت «أما لريك» المرعب رحت أقنع نفسي أنني يجب أن أقرأ ذلك على أنه مجرد درس من الدروس.

بعد «رافن» رحنا في جولة لمدة خمسة عشر يومًا، رأينا «روما» و«فلورنسا» على عجالة، ثم تركنا مدينة «البندقية» و«فيرونا»، وفوجئنا بأن الرحلة انتهت، وأنه ليس أمامنا سوى أن نتوقف في «باريس». وعهدت في نفسي لذة جديدة، هي الكلام عن المستقبل مع «مارسلين»، وبقينا على غير يقين فيما يتعلق بموضوع وظيفة الصيف. أصابنا الملل من السفر، وقررنا ألا نرحل.

تمنيت أن تتاح لدراستي الوقت الطويل والهدوء العميق، وفكرنا في امتلاك قطعة أرض كانت تملكها أمي فيما قبل، قضيت فيها معها بعض فصول الصيد إبَّان طفولتي،

كان أبي قد عهد لأحد الحرس برعايتها والسهر عليها، لقد غدا رجلًا عجوزًا، أما الأرض فتبدو الآن وكأنها تخصه أكثر، فهو يرسل لنا ريع الحقل بشكل منتظم، هناك منزل كبير ومريح في حديقة مليئة بالمياه المتدفقة تركت في نفسي الذكريات السعيدة تُسمى «لامورنيير».

وبدت لي أنها قد تكون مسكنًا مناسبًا.

كنت قد خصصت الشتاء القادم لقضائه في روما من أجل العمل وليس للسفر، ولكن هذا المشروع الأخير سرعان ما انقلب، ففي بريدنا الهام الذي ننتظر وصوله منذ وقت طويل، علمنا من رسالة مفاجئة أنه يوجد مقعد شاغر في «الكوليج دو فرانس»، وأن اسمي قد رشح لمرات عديدة، لم يكن هذا بذلك سوى رجاء، ولكن مَن يترك لي في المستقبل حرية التصرف؟ أشار لي الصديق الذي أخبر بالأمر ووددت أن أوافق؛ فهناك بعض الإجراءات البسيطة التي علينا اتخاذها. وراح يضغط عليَّ بقوة أن أقبل، ترددت وأنا أتصور العبودية تقيدني، ثم فكرت أنه من المهم أن أعرض أعمالي في محاضرة عن كاسيدور، وأحسست بالسعادة أنني سأبلغ قراري إلى «مارسلين»، خاصةً بعد أن اتخذته بشكل نهائي.

كان أبي قد عقد العديد من الصلات التي استكملتها بنفسي من خلال المراسلات، جعلتني هذه الطريقة أمارس البحث الذي أريده في «رافن» وفي أماكن أخرى. لم أكن أفكر إلا في العمل، وكانت «مارسلين» توليه ألف عناية وألف اهتمام.

بدت سعادتنا كبيرة في نهاية هذه الرحلة، وهادئة لدرجة لا أستطيع أن أحكيها، فأفضل الإبداع الإنساني قد تم من خلال المعاناة الحقيقية.

كيف ستكون السعادة؟ ترى مَن يصنعها؟ ومَن يهدمها؟ ومَن يحكي عنها؟ أرد عليكم وأقول: إنني الذي صنعت هذه السعادة.

القسم الثاني

(١)

إلى «لامورنيير» في الأيام الأولى من شهر يوليو، لم نتوقف في «باريس» إلا للضرورة ومن أجل التموين، وللقيام ببعض الزيارات القليلة.

أخبرتكم أن «لامورنيير» تقع بين «ليزيو» و«كوبري القس» في البلاد الأكثر ظلالًا، وأكثر البلاد التي عُرفت تشبعًا بالماء، إنها مليئة بالتعاريج والمنحنيات الضيقة التي تؤدي إلى ساحل «أوج» المتسع الذي يطل مباشرةً على البحر، وعلى مسافة قريبة، فإن الغابات الكثيفة يملؤها الغموض.

هناك يوجد بعض الحقول، وعلى مقربة منها، توجد المراعي الكثيفة التي يبدو فيها العشب وكأنه ينمو منذ سنتين، وأشجار تفاح عديدة، وعند غروب الشمس تصنع الظلال التي تمر من بين فروع الأشجار أبراجها، وفي كل حفرة توجد المياه والبرك والطمي حيث نسمع النهر وهو لا يكف عن التدفق.

آه! كم أعرف المنزل عن ظهر قلب! أسقفه الزرقاء، وجدرانه المشيدة من الطوب والحجارة والخنادق، وانعكاسات الشمس فوق المياه الراكدة ... إنه بيت قديم سكنا فيه قرابة اثني عشر عامًا، كان لـ «مارسلين» ثلاثة عشر خادمًا يساعدونها، فضلًا عني، لقد نجحنا أن نشكل حزبًا، أما حارسنا العجوز الذي يُسمى «بوكاج» فقد راح يبذل كل ما لديه من أجل تجهيز بعض الغرف.

لقد استيقظ أثاث الغرفة من نومه بعد عشرين عامًا من الرقاد، بقي كل شيء هناك كما هو مائل في ذاكرتي، كانت النقوش لا تزال مهدمة، أما الغرف فلم يسكنها أحد قط، وكأنها مستعدة لاستقبالنا. «بوكاج» يملأ كل الزهريات بالورود التي وجدها أمامه، وراح

يعزق ويجرف الحوش الكبير والحديقة القريبة من الممرات، لقد عاد لنا البيت الكبير أخيرًا، وتسلل إليه الشعاع الأخير من الشمس، أما الوادي فقد ملأه الضباب الذي يبدو كأنه يطير حين يبلغ النهر.

وقبل أن أصل بقليل تعرفت على رائحة العشب، وعندما قمت بدورة حول المنزل سمعت زقزقات البلابل، وانتفض المر وكأنه ينتظرني ويعرفني، ويريد أن يمنع اقترابي منها.

وخلال بضعة أيام، أصبح المنزل أكثر ملاءمة، وأصبح في إمكاني أن أبدأ العمل، فرحت أسمع وأتذكر كل الماضي، ثم رحت أحسُّه بمشاعر جديدة، وقد حدثتني بعد وصولنا بأسبوع أنها حامل.

بدا لي منذ تلك الآونة أن عليَّ أن أعتني بها من جديد، وأن لها الحق في المزيد من الحنان، على الأقل في الفترة الأولى التي أعقبت تصريحها؛ حيث رحت أقترب منها كل ساعات النهار، كنا نجلس على مقربة من الغابة فوق المقعد الذي كنت أجلس عليه سابقًا مع أمي، هناك تنتابنا الرغبة في كل لحظة، تجري الساعات بسرعة، لم ترتبط بذاكرتي أي غريزة في هذه الفترة، ولم أحتفظ منها بأقل قدر من الذكرى، ولكن برغم أن كل شيء ينغمس فيَّ، فإن الأمور قد تشكلت في شكل واحد؛ حيث يندمج المساء بالصباح بلا فاصل، وترتبط الأيام ببعضها البعض بدون إحداث أي مفاجأة. استعدت قدرتي على العمل ببطء، وبروح هادئة، ساكنة، واثقًا في قوتها، متطلعًا نحو المستقبل بكل ثقة، وبإرادة قوية، كأنني أسمع نصيحة تنبعث من هذه الأرض البسيطة.

رحت أفكر أن هذه الأرض التي تنمو فيها كل الفواكه والعشب الكثيف قد تركت أثرها عليَّ، وهو أثر ممتاز، ورحت أتأمل المستقبل الهادئ الذي يتمثل في هذه المراعي الوفيرة، وأشجار التفاح التي تطرح نباتات من أفرعها المدلاة فوق التلال التي أثمرت في هذا الصيف محصولًا رائعًا، رحت أتخيل، تُرى أي تلك الأفرع سوف يمتلئ بالفواكه التي تنمو فوق زرعها من هذا الرخاء المبهج، وهذه الزراعات المزهرة؟ هناك إيقاع لحني متناسق، ليس فجائيًّا ولكن وطيد، إيقاع متناسق، جمال إنساني وطبيعي، لا نعرف ماذا يعجبنا، يختلط مع الخصوبة المتفجرة للطبيعة الحرة، وبمعرفة الإنسان الذي ينظمها.

رحت أتساءل: ترى ماذا تكون هذه المعرفة؟ وهل هناك إمكانية لإنقاذها؟ ماذا ستكون الدفعة الموحشة لهذه العصارة الفائضة من مكنون الذكاء الذي يسدها ويصحبها وهو يضحك؟ تركت نفسي أحلم بالأرض التي تقوم فيها كل القوى بكل ما هو لازم، وتدبر

كل المصاريف الممكنة وكل التغيرات المتاحة. وأصبح الأمر حساسًا، فها أنا ذا أطبق حلم حياتي، أشيد علم أخلاق يصبح عملًا مفيدًا للإنسان من خلال مكنونه وذكائه.

أين أغوص فيه؟ وأين أختبئ من متاعب الأمس؟ بدا لي أنني هادئ وأنها لم تكن هناك قط؛ لذا تدفق حبي الذي يكشفها جميعًا.

في تلك الآونة راح العجوز «بوكاج» يصنع الحماس من حولنا، كان يدير كل شيء، يرقب وينصح، ونحس بحاجته أن يبدو كشخص يجب عدم مناقشته، وحتى لا نجبره فقد كان علينا أن نختبر حساباته ونسمع كل تفسيراته اللامتناهية، لم يكن هذا يكفيه، كان عليَّ أن أصحبه فوق الأرض الزراعية أسمع أحكامه المثالية، وخطبه المستمرة، وأرى الرضاء التام يلفه، وخلال فترة قصيرة من الزمن راح يغطيني، فقد أصبح متعجلًا شيئًا فشيئًا، بدا لي هذا أمرًا جيدًا من أجلي، عندما يحدث شيء غير عادي فإنه يعطي علاقتنا معًا سمة مختلفة، فقد أعلن «بوكاج» ذات مساء أنه ينتظر وصول ابنه «شارل» في صباح اليوم التالي. هتفت بصوت ذي نبرة مختلفة: آه! فحتى تلك الفترة لم أكن أعرف الكثير من مشاعر الأطفال حتى أفهم «بوكاج»، ثم رأيت أن اختلافنا قد مسه، وأنه كان ينتظر مني بعض دلائل الاهتمام والدهشة، سألته: أين هو الآن؟

ردَّ «بوكاج»: في مزرعة نموذجية، قريبة من البنسيون.

أكملت: لعله الآن قد اقترب من …

رحت أخمن مَن هذا الابن الذي لم أكن أعلم بوجوده حتى تلك اللحظة، وتكلَّمت ببطء كي أترك له فرصة مقاطعتي، ردَّ «بوكاج»: سبعة عشر عامًا مضت، لم يكن عمره أكبر من أربع سنوات عندما ماتت السيدة أمك. آه إنه شاب كبير الآن، وقريبًا سوف يصبح أطول من أبيه … وعلق «بوكاج» ذات مرة أن لا شيء يمكن أن يوقفه بعد أن بدا أنني أحسست بالملل.

في صباح اليوم التالي لم أفكر إلا في هذا الأمر، وعندما جاء «شارل» في نهاية اليوم، راح يلقي بتحيته لـ «مارسلين» ولي. بدا شابًّا جميلًا موفور الصحة، ومرن الجسم، ووسيمًا وهو بملابسه المدنية الأنيقة التي ارتداها على شرفنا، ولم يستطع أن يجعل منها شيئًا سخيفًا، أضاف خجله على ملامحه بعض الحمرة الطبيعية.

بدا في الخامسة عشرة من عمره، اكتست نظراته بملامح طفولية، راح يتكلم بسلاسة بدون أن يحس بأي خجلٍ، وعلى عكس أبيه، لم يكن يتكلم لمجرد الكلام، لا أذكر في أي موضوع تناقشنا في الأمسية الأولى، انشغلت بالنظر إليه، لم أجد شيئًا أقوله، وتركت

«مارسلين» تتحدث إليه، ولكن في اليوم التالي وللمرة الأولى لم أنتظر أن يجيء العجوز كي يأخذني إلى المزرعة، حيث عرفت أن الأعمال قد بدأت.

كان الأمر يتعلق بإصلاح بِركة، إنها البركة الكبيرة التي كانت تسرب المياه، عرفنا مكان التسرب من أجل أن نوقفه بالأسمنت، يجب أن يبدأ الأمر بتفريغ البركة من المياه، لم نفعل هذا منذ خمسة عشر عامًا، هجرتها أسماك «السبوط» و«الكمة» وتضخم بعضها في الأعماق، أردت أن أجمعها في مياه الخندق وأن أعطيها للعمال، مما أضاف شيئًا من متعة الصيد إلى العمل، معلنًا عن إعادة الحياة إلى المزرعة، وسرعان ما جاء بعض أطفال الضواحي واختلطوا بالعمال، أما «مارسلين» فقد تأخرت عن الانضمام إلينا.

انخفض منسوب المياه قبل فترة طويلة من وصولي، كان أحيانًا يعلو فجأة فوق السطح فتظهر الأسماك السمراء الشفافة في وسط المستنقع، ويقف الأطفال الموحلين وهم يلتقطون الأسماك الصغيرة، ثم يلقونها في جرادل مليئة بالمياه النقية في مياه البركة، وما تلبث حركة الأسماك أن تعكرها وتصبح بين لحظة وأخرى كثيفة ومعتمة. زادت الأسماك هناك، ولو وضعت يديك مصادفةً فإنها ستمتلئ بالأسماك، أحسست بالأسف أن «مارسلين» قد انتظرت، وقررت أن أبحث عنها عندما انطلقت التهليلات معلنة عن ظهور سمك «الأنفلس»، لم ينجح أحد في الإمساك بإحداها، فهي ما تلبث أن تنزلق بين الأصابع، لم يتمكن «شارل» من الإمساك بها، وكان يقف قريبًا من أبيه، فجأة خلع جوربه وحذاءه ووضع سترته جانبًا، وشمَّر بنطاله عاليًا وأكمام قميصه، وانغمس في الطين المتحرك، ولتوي رحت أُشجعه.

صحت: حسنًا يا «شارل»، هل عدت بالأمس؟

لم يرد، راح ينظر إليَّ وهو يضحك، وقد انشغل تمامًا بصيده، ناديته كي يساعدني في أن أحاصر إحدى السمكات، وتماسكت أيادينا من أجل الإمساك بها، ثم رحنا نمسك واحدة أخرى. ملأ الوحل وجوهنا، وأحيانًا كنا نغوص فجأة في الماء حتى الركب، فنبتل تمامًا، ورحنا نتبادل بعض الصيحات أثناء اللعب، وفي آخر النهار لاحظت أنني رفعت الكلفة عن «شارل». بدون أن أعرف متى بدأ هذا الحادث المشترك الذي علم كل منا أنه لا يمكن أن نتحدث طويلًا. لم تكن «مارسلين» قد جاءت، ويبدو أنها لن تجيء ولم أحس بالأسف لغيابها، بدا لي أن حضورها يمكن أن يفسد متعتنا قليلًا.

وفي صباح اليوم التالي خرجت لملاقاة «شارل» في المزرعة، ثم توجهنا معًا نحو الغابة.

اندهشت وأنا الذي لا أعرف أرضي جيدًا وأشعر بالقلق لأنني لا أعرفها، ولأن «شارل» يعرفها أفضل، خاصةً المنتجات الزراعية، راح يعلمني ما سبق أن تعلمته من ستة مزارعين،

وأخبرني أنني يمكن أن أكسب النصف لو قمت بإصلاح المزرعة من جميع النواحي. ثم ابتسم وهو يفحص الزراعات، مما جعلني أتشكك في أن أرضي يمكن أن تصبح ممتازة أكثر مما كنت أعتقد، وأنني يمكن أن أولي بها إلى «بوكاج».

فاتحت «شارل» في هذا الموضوع، وبدا على الطفل العملي أنه يعمل على تسليتي بذكائه، فقد رحنا نتنزَّه يومًا وراء يوم، كانت ممتلكاتي واسعة، وعندما نفتش كافة الجوانب نبدأ بأكثرها تقليدية، لم يُخفِ «شارل» عني مشورته عند رؤية بعض الحقول مزروعة بشكلٍ سيِّئ.

فهناك مساحات استولت عليها أعشاب القرنيات، والأشواك، والحشائش الجافة. كان يعرف كيف يجعلني أشاركه كراهية هذه الأرض، وأن أحلم معه بزراعة أفضل.

قلت له: لكنني أعاني من الأشخاص المُدعين، هل المزارع الحقيقي موجود؟ ربما أن إنتاج المزرعة لا يفي بثمن المنتجات الحقلية.

أحس «شارل» بالغضب، وقال: لو سمحت لي أن أرد، فأنت لا تعرف شيئًا ابتسمت ولا تهتم بالعائد، ألم تلحظ أن العائد قد قل؟ أرضك غير مزروعة جيدًا، إنها تفقد قيمتها ببطء.

– لو تمت زراعتها بشكل أفضل فإنني أشك أن المزارع لن يستغلها، أعرف أنه يمكن أن يحصدها كما يجب أن يكون الحصاد.

أكمل «شارل»: أنت لا تدخل الأيدي العاملة في الحساب. فهذه الأرض بعيدة أحيانًا عن المزارع، وعند زراعتها لن تدر شيئًا، أو هكذا تقريبًا ولكنها على الأقل لن تبور.

استمر الحوار لمدة ساعة ونحن نخترق الحقول وبدا لنا أننا نكرِّر نفس الشيء، ورحت أستمع إليه كل يوم، وقلت له يومًا وقد نفد صبري: على كُلٍّ، فهذا يرجع لأبيك.

أصابت الحُمرة «شارل» قليلًا، وقال: أبي رجل عجوز، وعليه أن يسهر على الناحية الجمالية، فيهتم بالمباني، والقيام بأعمال المزرعة على أحسن واجب، وليست مهمته الإصلاح.

أكملت: أي إصلاح تود؟

تهرَّب من الإجابة زاعمًا أنه لا يعرف شيئًا. وتحت إلحاحي الشديد رحت أشرح له وأنا أضيف: نضم إلى المزارع كل الأرض التي أهملت زراعتها، فإذا ترك الزُّرَّاع جزءًا من أرضهم بورًا؛ فإن هذا دليل أن عليهم أن يدفعوا لك الكثير لإصلاحها، أو يمكنهم أن يزعموا أشياء كثيرة، فيروحوا ينقصون ثمن المنتجات الزراعية، الناس كسالى في هذا البلد.

– كانت هناك ست مزارع استعدتها بإرادتي، وتقع فوق التل الذي يطل على «لامورنيير»، كان اسمها «لافالتري»، لم يبدُ المزارع الذي يتولاها شخصًا جذابًا عندما

تحدثت معه، وقريبًا من «لامورنيير» هناك مزرعة تُسمى «مزرعة العقد» أجر «بوكاج» نصفها بطريقة المشاركة مستغلًّا غياب المالك، وملكيته لجزء من الماشية. الآن وُلِدَ التحدي، وبدأت أشك في ذمة «بوكاج» نفسه وأنه قد خدعني، أو على الأقل أنه قد ترك البعض يخدعونني، حقًّا إنه احتفظ لي بإسطبل وزريبة، لكن بدا لي أنها لم تخصص إلا للمزارعين لكي يطعموا أبقارهم وجيادهم بالقرطم الذي أملكه، وعلفي.

تنامت إلى مسامعي أخبار عديدة أن «بوكاج» — من وقت لآخر — كان يعطيني الإيحاء أنها قد نفقت، أو ماتت أو مريضة، وقد ارتضيت بكل هذا، يكفيني أن تسقط إحدى الأبقار مريضة كي تصبح بقرتي، لم أفكر في أن ذلك يمكن أن يكون حقيقة؛ فإذا تحسنت بعض الأبقار بعيدًا فهي بقرة المزارع، هنا بدأت بعض تعليقات «شارل» تفلت منه، وكشف بعض الملاحظات الشخصية لي، وسرعان ما استيقظ ضميري.

راحت «مارسلين» تضع كل شيء في الحسبان، برغم أني حذرتها أن تفعل ذلك، لكنها لم ترتكب أي خطأ، أفلتت منها مسألة عدم أمانة «بوكاج»، ماذا نفعل؟ هل نطرده؟ رحت أتدبر الأمر بغضب وقررت أن أرقب الحيوانات وألا أتركها بعيدة عن ناظري.

كان لدي أربعة جياد وعشر بقرات، وهناك ما يمكن تسميته «مُهر» برغم أنه كان هناك منذ ثلاث سنوات ولم نهتم بالاعتناء به، بدأت أهتم به فعلًا عندما بدا لي ذات يوم أنه شرسٌ للغاية، وأنه لا يمكن أن يكون مفيدًا لنا، ومن الأفضل أن أتخلص منه، وحتى لا يتسرب إليَّ الشك فقد كسر مقدمة عربة صغيرة، ولوَّث العراقيب بالدماء.

رحت أحتفظ بهدوئي في ذلك اليوم، وما أثارني هو اهتمام «بوكاج»، لاحظت أن به ضعفًا وسوء نية، فالخطأ هو أن يحس الخدم أن لا أحد يوجههم.

خرجت إلى الحوش لأرى المهر، ما إن سمعني حتى اقترب، راح الخادم الذي يضربه يداعبه، وتصرفت كأنني لم ألحظ شيئًا، لم أكن أعرف الكثير عن الجياد، ولكن هذا المهر بدا لي جميلًا، ذا شكل جذاب، وتشع الحيوية من عينيه، وتبدو خصلته وذيله ذواتي لون أشقر. تأكدت أنه لم يُجرح، وبُلغتُ أنهم قد ضمدوا جراحه، ولم أنطق بكلمة واحدة.

وفي المساء، ما إن رأيت «شارل» حتى حاولت أن أعرف رأيه في «المهر» فقال لي: أعتقد أنه رقيق، ولكنهم لا يعرفون معاملته، وسوف يدفعونك إلى أن تفقد أعصابك!

– كيف تزعم ذلك؟

أجاب: ألَا يريد السيد أن يجعلني مسئولًا عنه ثمانية أيام؟

– ماذا ستفعل به؟

– سوف ترى.

في صباح اليوم التالي صحب «شارل» المُهر في ركن من المراعي تتكثف فيه الأشجار، ويحيط به النهر، في حين رحت أرافق «مارسلين». بدا أكثر حيوية، ربط «شارل» المهر بحبل طوله عدة أمتار في وتد مثبت في الأرض. بدا المهر عصبيًّا وغاضبًا، وراح يضرب في الهواء، ثم برك وقد أصابه التعب، ثم استدار بطريقة بالغة الهدوء، كان يبدو محببًا بكل ما به من خفة، ويبدو للعين جذابًا وكأنه يرقص.

وقف «شارل» في منتصف الدائرة يتجنب في كل دورة أي قفزة مفاجئة، ويروح يهدئه بكلمة ويمسك سوطًا في يده لم يستخدمه، بدا كل شيء طبيعيًّا في حركاته وشبابه وبهجته، مما أعطى هذا العمل مظهرًا يبعث على الفرحة، فجأة، لم أعرف كيف امتطى الحيوان، كان يعرف كيف يبطئ حركاته، ثم يتوقف، داعبه خفيفًا، ثم رأيته فوق المهر، والآن يلمس شعره ضاحكًا ويطيل مداعبته، ظل المهر مركوبًا لحظة، بعد أن صار جميلًا ومرنًا مثلما أراد «شارل». قلت له: بضعة أيام من التدريب ولن يضايقه السرج. وبعد أسبوعين سوف تجرؤ «مارسلين» على أن تركبه، سيكون رقيقًا كالحمل.

ردَّ: «حقًّا»؟ وبعد أيامٍ استسلم الحصان للمداعبة، وتصرف بدون تحدٍّ، وركبته «مارسلين» عندما كان عليها أن تجتاز هذا الاختبار، ثم سمعت «شارل» يقول: يجب أن يجرب السيد.

هذا هو ما لم أحاول أن أفعل، ولكن «شارل» اقترح أن أسرجه من أجله، أو أي حيوان آخر في المزرعة، وكانت صحبته تجعلني أشعر بالمتعة.

كم أنا مدين لأمي، إنها جعلتني أروض الخيل أثناء شبابي الأول، لقد أفادتني هذه الذكرى البعيدة من الدروس الأولى، لم أشعر بالدهشة لجلوسي فوق السرج، وخلال لحظات قليلة لم أعد أخشى شيئًا، أحسست بأنني على راحتي، وكان الحصان الذي يركبه «شارل» أكثر ثقلًا، وبلا أصل، ولكن رؤيته لم تكن تسر، خاصةً أن «شارل» كان يمتطيه بشكل جيد. اعتدنا أن نخرج قليلًا كل يوم، وكنا نفضل أن نخرج في الصباح إلى البراري الواسعة الوردية اللون حتى نصل إلى أطراف الغابة، ثم نجتاز الممر المائي ونتبلل. ينفتح الأفق شيئًا فشيئًا، إنه وادي «أوج» الواسع، تصورنا البحر من بعيد، وقفنا لحظة بدون أن ننزل، هناك ولدت الشمس ملونة، وأشرقت، ثم نثرت الضباب، استأنفنا الرحيل في خُطى طويلة، إلى أن بلغنا المزرعة حيث العمل يكاد يبدأ، أحسسنا بالفرحة الممزوجة بالفخر، فقد سبقنا العمال، ثم تجاوزناهم، وعدت إلى «لامورنيير» في اللحظة التي استيقظت فيها «مارسلين».

عدتُ ثِملًا من الهواء، مذهولًا من إيقاع الأشياء، استرخت الأعضاء قليلًا من تأثير الماء، في حين كان الأمل لا يزال مليئًا بالصحة والشهية والطزاجة. بدت «مارسلين» كأنها تود أن تشجع خيالي، جلست إلى جوار السرير تنتظرني، وانبعثت رائحة الأوراق المنداة التي تعجبها، وراحت تسمعني أحكي لها عن السباق، وعن صحوة الحقول، وبداية العمل ... انتابتها فرحة عارمة، وبدت كأنها تجعلني أشعر بالحياة، وكلما غمرتها الفرحة رحت أفرط في الحكايات، فتطول فرحتنا وتنزهاتنا، مما جعلني في بعض الأحيان أعود عند منتصف النهار.

في بعض الأحيان كنت أحتفظ لنفسي — على أحسن ما يكون — بنهاية النهار والمساء كي أقوم بدراستي، وليتقدم عملي. كنت راضيًا، ولم أعتبر هذا عملًا مستحيلًا، وأنني يجب أن أستجمع كل دروسي في وقت واحد كأمر طبيعي كي تنتظم حياتي، وأنا أنظم كل شيء، لقد استحوذ عليَّ علم أخلاق الغوطيين، وانشغلت بدراستي تمامًا، واهتممت أن أختزل كل ما يمكن أن نذكره وأنا أتساءل: تُرى إلى أي مدى يمكن لهذه الحكمة أو الجنون أن يذهب بي؟

ود اثنان من المزارعين، الذين يستمر إيجارهم حتى عيد الميلاد أن يجددا الإيجار عندما قابلاني، كان الأمر يتوقف على التوقيع، تقول الورقة «وعد الإيجار». وبكل ثقة من «شارل»، وتأثرًا بأحاديثه اليومية، رحتُ أنتظر المزارعين اللذين بَدَوا قويين أكثر من أي مزارعين. طلبا في البداية تخفيض الإيجار، وبدت عليهما الدهشة عندما أخبرتهما أنني قرأت «الوعد»، وقلت أنني لا أرفض فقط تخفيض المنتجات الحقلية، ولكن أيضًا أن أخفض بعض قطع الأرض التي أحتفظ بها ولم يستخدماها. تظاهرا في البداية بالضحك، ورحت أمزح، ترى ماذا سأفعل بهذه الأرض؟ إنها لا تساوي شيئًا، وطالما لا تساوي شيئًا فإننا لن نفعل بها شيئًا ... عاندا فعاندتُ من ناحيتي، تصورا أنهما يخيفانني وهما يهددانني بالرحيل، وعندما تخيلت أنني لم أسمع سوى هذه الكلمة قلت لهما: «هه! ارحلا إذا أردتما! ولن أعيدكما.»

وأمسكت «وعد الإيجار» ومزقته أمامهما.

بقيت هكذا. ماسكًا أكثر من مائة هكتار بين ذراعي، لقد وكلت إدارتها إلى «بوكاج» منذ بعض الوقت، معتقدًا أنها سوف تُدار بشكل غير مباشر من «شارل»، وتصورت أنني يمكن أن أهتم بها من ناحية أخرى، ولم أفكر طويلًا في هذا الأمر، الخطر هو أن العناد أمسك بي، كأن المزارعين لن يُخليا المكان إلا في عيد الميلاد. وأخبرت «شارل» بالأمر، وأسعدتني فرحته، لم يستطع أن يخفيها، مما جعلني أحس كثيرًا بشبابه.

وراح الوقت يتحرك، كنا في هذه الفترة من السنة؛ حيث تترك المحاصيل بدون جني في الحقول من أجل الحرثة الأولى، ومن خلال اتفاقٍ ما، فإن أعمال المزارع تتم وتتقاطع فيما بينها، حيث تترك القطعة تلو القطعة، خاصة التي تنمو فيها الأعشاب، رحت أشك في كراهية المزارعين البغيضة، فهم يعجبهم أن يتظاهروا بسلوك مثالي أمام ناظري «لم أعرف الهدف من ذلك إلا فيما بعد» لقد أنهك الرجل الأرض الزراعية التي استأجرها والتي ستعود إليَّ قريبًا. الآن اقترب الخريف، ويجب أن أستأجر أكثر من رجل كي أسرع من عمليات الحرث، والبذر. اشترينا نوارجَ، وقلابات، ومحارث، ورحت أتجول فوق جوادي، أرقب وأدير الأعمال، وأنا أحس بالمتعة أنني آمُرُه، وأسيطر.

في تلك الآونة، كان المزارعون في المراعي المجاورة يجمعون التفاح المتساقط، ويدورون داخل الأحراش الكثيفة التي بدت مهملة لسنوات عديدة، لم يكن هناك عدد يكفي من العمال، جاءوا من القرى المجاورة للعمل كأُجراء لمدة ثمانية أيام، كنا نتسلى أحيانًا، أنا و«شارل» فنساعدهم، يهز بعضهم الأفرع لإسقاط الثمار الناضجة، كما يتجمع جمع الثمار الساقطة تحت الأشجار، إنها دائمًا مضروبة في الأعشاب العالية، التي لا يمكن أن نمشي فيها بدون أن ندوس عليها، كانت الرائحة المنبعثة من المرعى نفاذة العبق، رقيقة، وتختلط برائحة المحاريث.

تقدم بنا الخريف، وبدت الأيام الأخيرة أكثر جمالًا وإنعاشًا وصفاءً، كان الجو أحيانًا يبدو قرمزيًّا ويصبغ الأفق بزرقة، مما جعل من النزهة سفرًا، بدا البلد كبيرًا، وأحيانًا على العكس، تجعل شفافية الجو الأفق أكثر قربًا، فنكاد نبلغه بضربة جناح، فلا أعرف أي الاثنين يملأ المكان، استمر ذلك حتى كاد العمل ينتهي، أقول ذلك لأنني كنت أشرد قليلًا. أما الوقت الذي لا أَمُرُّ فيه على المزرعة فإنني أقضيه مع «مارسلين»؛ حيث نخرج معًا إلى الحدائق، نمشي ببطء، وتضع رأسها على ذراعي حين نجلس فوق أحد المقاعد، وهناك يبدو العقيق مليئًا بالضوء في المساء. كانت لديها طريقتها الرقيقة للاتكاء على كتفي، ونبقى هكذا حتى المساء، نحس بالنهار في داخلنا بدون أن نتحرك أو نتكلم. كم عرفنا في الصمت إلى أي حد وصل حبنا! كان حب «مارسلين» أقوى من أن تعبر عنه الكلمات، وكم كنت أعاني أحيانًا من هذا الحب، وكأنه نفخة ريح قوية تهب فوق مياه آسنة، فأقل شعور يظهر فوق جبهتها يجعلني أقرأ الغموض عليها، إنها تسمع حياة جديدة تئن، تعلقت بها وكأنني في مياه عميقة نقية، بعيدة لدرجة نكاد نراها، لم نكن نرى سوى الحب. آه!

هكذا كانت السعادة، أعرف أنني أردت التمسك بها منذ تلك الآونة، مثلما تركت نفسي أستسلم ليديها القريبتَين، لكن بلا جدوى، فالمياه لا تلبث أن تنفلت، كنت أحس وأنا على شفا السعادة بأشياء أخرى غير الفرحة التي تلون حبي، وأيضًا تلون الخريف.

راح الخريف يتقدم، فيهتز العشب كل صباح، وعندما يجف يكتسب لونه الذهبي، وفي ساعات الفجر يصبح أبيض، ويحط البط فوق سطح البركة مرفرفًا بأجنحته، ويتحرك بكل وحشية، ونراه أحيانًا يطير، ويطلق صيحات عالية وهو في طيرانه العالي حول «لامورنيير»، واختفى فجأة ذات صباح، وعرفنا أن «بوكاج» قد حبسه، وأخبرني أنهم يحبسونه دائمًا في الخريف، في فترة الهجرة وبعد بضعة أيام تغير الجو، فذات مساء هبت الرياح قوية قادمة من البحر، جالبة معها المطر من الشمال، والطيور المهاجرة. كان عليَّ أن أعتني بـ «مارسلين» كل عناية، راحت حاجتي تدفعني للذهاب إلى المدينة، فها هو ذا الفصل السيئ قد بدأ مبكرًا، وها هو ذا ينهش أجسامنا.

راحت أعمال المزرعة تناديني في نوفمبر. كان عليَّ أن أتعلم كل الأمور من «بوكاج» من أجل الشتاء. أعلن لي عن رغبته أن يرسل «شارل» كي يستكمل تعليمه، تحدثت معه طويلًا، وجربت كل السُّبل، لكنني لم أنجح في إقناعه، كل ما وافق عليه هو أن يقصِّر فترة دراسته كي يسمح لـ «شارل» أن يعود في فترة مبكرة. لم يُخفِ عني «بوكاج» أن تحسن أمور المزارعين، لم يحدث بدون متاعب كبيرة، ثم راح يقدم لي اثنين من الفلاحين يأتمران بأمره، إنهما تقريبًا مزارعان، أو مستأجران، أو لعلهما خادمان. بدا الأمر جديدًا تمامًا كما تنبأ، دارت هذه المحادثة في نهاية أكتوبر، وفي الأيام الأولى من شهر نوفمبر كنا قد غادرنا المكان لنستقر في «باريس».

(٢)

سكنَّا في شقة بشارع س ... قريبًا من «باسي»، أشار بها علينا أحد أشقاء «مارسلين»، الذي استطعنا زيارته أثناء عبورنا الأخير بـ «باريس»، إنها أكبر من تلك التي تركها لنا أبي. بدت «مارسلين» قلقة قليلًا، ليس فقط بسبب الإيجار العالي، ولكن أيضًا من كل المصاريف التي نتكبدها. رحت أهدئ من كل تخوفاتها، ورحت أجاهد كي أخفف عنها، لا شك أن مصاريف الإقامة تستهلك دخولنا في هذه السنة، لكن ثروتنا لا بأس بها، ويجب أن تزيد، اعتمدت في هذا على نشر كتابي «ويا له من جنون» وعلى الإيراد الجديد للمراعي. قلت لنفسي: إنني لن أتوقف عن أي مصروف، فقد كان عليَّ أن أقلل من إحساسي بالتشرد الذي كنت أشعر به.

كنا نقضي الأيام الأولى من الصباح حتى المساء في الدراسات. وراح شقيق «مارسلين»، مضطرًّا، يدخر لنا الكثير. أحست «مارسلين» بالإرهاق، وبدلًا من الراحة الواجبة عليها، كانت تقوم باستقبال الزوار تلو الزوار. زاد البعاد فيما بيننا، فـ «مارسلين» لم تعتد على الناس، ومع ذلك لم تجرؤ أن توصد أبوابها، كنت أجدها في المساء منهكة، ولم أقلق لتعبها؛ لأنني لم أعرف سببه الحقيقي، حاولت أن أقلل من ألمها، وأنا أضع نفسي دائمًا في مكانها، لكن هذا لم يبعث في قلبي التسلية. فرحت أقوم برد الزيارات للزوار، وكان هذا الأمر يساعدني أحيانًا في التسرية.

لم أكن متحدثًا لبقًا، فقد كان نزق الصالونات وروحها شيئًا لا يعجبني، ومع ذلك أحسست بالتوتر. تُرى ماذا حدث منذ تلك الآونة؟ أحسست وأنا قريب من الآخرين أنني حزين، غاضب، متضايق وثائر ... ولمرات عديدة، أنتم يا من أعدكم أصدقائي الوحيدين الحقيقيين، لم تكونوا في «باريس»، وكان يجب ألا تعودوا إليها قبل فترة طويلة، هل كان يجب عليَّ أن أكلمكم؟ هل كان يجب أن أجعلكم تفهمون أفضل أنني لست أنا؟ ولكن كل ما كان ينمو في داخلي وما أقوله لكم الآن هو: ماذا كنت أعرف لقد بدا لي المستقبل شيئًا أكيدًا، ولم أصدق يومًا أنني أستطيع السيطرة عليه.

ومع ذلك فقد كنت أكثر غضبًا، فأي سبيل يجعلني أجد نفسي في كلٍّ من هوبير، وديديه، وموريس وآخرين، إنني أعرفكم وأحملكم المسئولية مثلي، فسرعان ما فهمت أنه من المتعذر أن أتفق معهم، ومنذ بداية النقاشات الأولى بيننا رأيت نفسي شخصًا مزيفًا، وأن عليَّ أن أتشابه مع ما يعتقدون أنني أكونه، وأن أبدو غاضبًا، وأن أبدو في أحسن حال، وأنني أحمل نفس الأفكار والذوق الذي يتصورونه فيَّ، وأننا لا يمكن أن نكون أوفياء لذلك أو حتى نتظاهر به.

رأيت على غير رغبتي الناس من مدرستي الأثرية والفقهية، ولكنني لم أجد شيئًا أتحدث به معهم أكثر من متعة المرء ومن إحساسه وهو يتصفح قاموس التاريخ.

في البداية كنت أتمنى أن أعثر على مفهوم مباشر للحياة لدى بعض الروائيين وبعض الشعراء، ولكنهم لو كانوا يمتلكون هذا المفهوم؛ فيجب أن نعترف أنهم لم يعبِّروا عنه قط، ويبدو لي أن أغلبهم لم يعِش قط أيضًا، ولم يسعد بالحياة ولو قليلًا، لقد تعاملوا مع الحياة بغضب وهم يكتبون، لا أريد أن أتدخل في ذلك ولا أؤكد أن الخطأ لا يأتي مني.

من ناحية، ماذا أنتظر من الحياة؟ هذا هو بالتحديد ما أردت أن أتعلمه، فالواحد منهم يتحدث إلى الآخر بمهارة عن مختلف شئون الحياة، بدون أن يتحدث عن الدوافع.

أما بالنسبة لبعض الفلاسفة، الذين كان لهم دور في تعليمي؛ فإنني أعرف منذ فترة طويلة ماذا يجب أن ننتظر منهم، سواء أكانوا علماء الرياضة أو النقاد، لقد اهتموا بأبعد ما يكون بالحقيقة المؤلمة، لم يهتموا إلا بعلم الجبر في حل المعادلات التي يقيسونها.

عند العودة إلى «مارسلين»، لم أُخفِ عنها الملل الذي أصابني، فقلت لها: كلهم متشابهون، كل منهم يمارس وظيفة مزدوجة، فعندما أتكلم عن واحد منهم يبدو لي أنني أتكلم عن العديدين.

ردَّت «مارسلين»: لكن يا صديقي لا يمكنك أن تطلب من كل واحد أن يختلف عن الآخرين.

إنهم يتشابهون فيما بينهم ويختلفون عني.

ثم أكملت بنبرة حزينة: لا أحد يعرف أنه مريض، إنهم يعيشون وقد بدت عليهم الحياة، لا يعرفون أنهم يعيشون. فمنذ أن اقتربت منهم لم أعد أعيش، ماذا أفعل؟ أنا مضطر أن أتركك في الساعة التاسعة، وقبل أن أرحل أمامي وقت لأقرأ قليلًا، إنها اللحظة الحقيقية الوحيدة في النهار، ثم ينتظرني أخوك عند الموثِّق، وبعد الموثِّق لا يتركني، فيجب أن أرى بائع السجاد معه، ويصحبني إلى مصنع الأثاث، ولا أتركه إلا عند «جاستون»، وأتغذى في الحي مع «فيليب»، ثم أجد «لوي» ينتظرني في المقهى، فأتحدث معه عن الدراسات العبثية لـ «تيودور» التي أثنيت عليها عند صدورها.

وكي أرفض دعوته للقاء يوم الأحد كان عليَّ أن أصحبه إلى منزل «آرثر»، ومع «آرثر» أشاهد معرضًا للرسوم المائية حيث تعرض بطاقات عن «البرتين» و«جولي» ... وأخيرًا أعود منهكًا وأجدكِ أكثر تعبًا منِّي، وأرى «آدلين»، و«مارت»، و«جان»، و«صوفي» ... وفي المساء أسترجع كل أحداث النهار ... وأحس أن يومي كان غير مفيد، ويبدو لي أنه كان خاويًا، وأنني أريد أن أستعيده، وأن أبدأ ساعاته الواحدة تلو الأخرى، وأحس بالحزن لدرجة البكاء.

لم أجرؤ أن أقول: إنني لا أعرف كيف أعيش، ولا ما هو الطعم الذي تذوقته لحياة أكثر اتساعًا، وأقل نضارة، وأقل همًّا من أي حياة أخرى، بدا لي هذا السر أكثر غموضًا — سر البعث — رحت أفكر.

لقد ظللت شخصًا غريبًا بين الآخرين كشخص عائد من بين الموتى، في البداية لم أحس إلا بغضب شديد، ولكن ما لبث أن انتابني شعور جديد للغاية، لم أحس بأي كبرياء، وأؤكد على ذلك حتى عند نشر الأعمال التي حققت لي الكثير من التقريظ، ترى هل هي

الكبرياء؟ ربما، لكن أي نوع من الغرور اختلط بي؟ إنها المرة الأولى التي أعي فيها قيمتي الحقيقية، وما يفصلني عن الآخرين يميزني ويجعلني مهمًّا، وإذا لم يَقُل أي شخص أنه لا يمكنه أن يتكلم، فإنني أعرف كيف أقول نيابةً عنه.

سرعان ما بدأت دراستي، لقد شدني الموضوع، غرقت في درسي الأول بكل ما أملك من مشاعر جديدة، أما بالنسبة لازدهار الحضارة اللاتينية فقد رحت أمشط تلك الثقافة، مرتقيًا إلى أحاسيس البشر، بطريقة غاضبة تشير إلى موفور الصحة التي تتجمد وتتعارض مع كل اتصال روحي مع الطبيعة، تختبئ تحت مظهر الحياة المُلِحِّ، وعندما تستمر الحياة تتكلم حيث الروح، وتلمع، ثم تموت، وأخيرًا تدفع كل أفكاري لأقول: إن الثقافة المولودة من الحياة تقتل الحياة.

استنكر المؤرخون نزعة التعميمات البالغة السرعة. واستنكر البعض الآخر طريقتي ... أما الذين امتدحوني فقد تصرفوا كأنهم لم يفهموني كما يجب.

وبمجرد صدور دراستي التي كنت أحلم بها للمرة الأولى رأيت «مينالك»، لم أقابله من قبل إلا قبل زواجي بقليل، لقد رحل من أجل القيام ببعض الاكتشافات البعيدة التي كان يخبرنا عنها أحيانًا لأكثر من عام، لم أعجب به قط فيما قبل، كان يبدو فخورًا، لم يهتم بحياتي، كم دهشت لرؤيته في محاضرتي الأولى، لقد أبعدتني عن وقاحاته، أما الابتسامة التي بدت لي ساحرة فقد كنت أعرف أنها نادرة، كان شخصًا عبثيًّا، أثيرت حوله فضيحة وجدت فيها الصحف فرصة ذهبية لتلطيخه، لقد جرحت كرامته وتميزه، وتملكه رغبة الانتقام، وما أثارني أكثر هو أنه بدأ يوجه لي شتائم رحتُ أرد عليها.

– يجب أن تترك للآخرين فرصة ليكونوا على حق، وأن يكون هذا باعثًا للعزاء، فهم لا يملكون شيئًا آخر.

– لكن «المجتمع الصالح» كما يشير هؤلاء الذين، حسبما يقال: «يتبادلون الاحترام»، عليهم أن يعتقدوا أنهم يتوجهون نحوه ويجعلونه صالحًا في حقارته، مما جذبني نحوه بقوة غامضة، وجعلني أقترب منه وأن أقبله بمودة أمام الجميع.

ها أنا ذا أرى مع مَن أتحدث، وها هي ذي المتاعب تتجاذب فيما بينها، فأبقى وحدي مع «مينالك». وبعد الانتقادات الساخنة والتقريظات الحمقاء انطلقت بعض كلماته حول دراستي، فقال: أنت تحرق ما تحب. حسنًا، لقد تأخرت، فقد اندلعت النيران، ولا أعرف هل أنتظرك أم لا؟ أنت تثير فضولي وأنا لا أتحدث عن طيب خاطر، لكنني أود أن أتحدث معك، لنتناول معًا العشاء هذا المساء.

أجبته: يا عزيزي «مينالك»، يبدو أنك نسيت أنني متزوج.

علَّق: فعلًا، فأنا أرى الرباط العاطفي الذي جرؤت أن تكشفه لي، لقد تصورت أنك حر .. خشيت أن أراه مجروحًا، فقد بدا ضعيفًا، فأخبرته أنني سألحق به عند العشاء.

في «باريس» كان «مينالك» يتصرف كالمسافرين، فهو يسكن الفنادق، وينتقل بين غرف عديدة وكأنها شقته، طالما أن هناك من يخدمه، إنه يأكل على سجيته، ويعيش على سجيته، يتمدد فوق الأرض. وعلى الأثاث الذي بهرته قذارته، بعض الأقمشة ذات الثمن المرتفع التي جاء بها من نيبال والتي انتهى — كما قال — به الأمر أن يقدمها إلى متحف، حدثني قبل أن ألحق به أنها كبيرة للغاية، فاجأته عندما دخلت، ورحت أعتذر، أنا أزعج مائدته، فقال لي: لم تكن لديَّ النية قط لمقاطعتك، أعلم أنك ستتركني أنتهي، لو حضرت أثناء العشاء، فسوف أسكب لك نبيذ الشيراز الذي كان يغني «حافظ الشيرازي» من أجله، لكن الوقت متأخر الآن، يجب أن تصوم لتشربه. هل تتناول أفضل السوائل؟

– ووافقت، وقد تصورت أنه سيتناوله معي، لكنه لم يقدم لي سوى كأس. قال وقد أصابتني الدهشة: معذرةً؛ لأنني لا أشرب أبدًا!

– هل تخشى أن تبلغ الثمالة؟

أجاب: آه! على العكس! ولكنني أمسك بنفسي حتى لا أصل إلى حد الثمالة، يجب أن أحتفظ بوعيي.

– وتسكب للآخرين الشراب؟

ابتسم وقال: لا أستطيع، إنها من فضائلي، من الجميل أن أجد فيها رذائلي.

– على الأقل فأنت تدخن؟

– ليس كثيرًا، إنها ثمالة غير شخصية، سلبية، ومن السهل قهرها، أبحث في الثمالة عن لهاث، وليس عن دوام الحياة.

– لنترك هذا. هل تعرف من أين جئت؟ من «بسكرة». عرفت أنك مررت من هناك، أردت أن أقتفي أثرك. ماذا حدث في «بسكرة»؟ لم أعتد أن أكون وغْدًا إلا لمن لا يبوح لي، ولما أعلمه بنفسي، وبفضولي أنا أعترف بذلك، لقد بحثت عنه دومًا، وسألت في مكان أستطيع الوصول إليه، خدمني كتماني وأعطاني الرغبة أن أراك، أعلم أنني يجب أن أعرف الآن، ولك أن تشرح لي السبب.

– أحسست بحمرة الخجل، فقلت:

– ماذا تعرف عني يا «مينالك»؟

– هل تريد أن تعرف؟ لا تخف! أنت تعرف أصدقاءك جيدًا، وأيضًا أصدقائي، وتعرف أنني لا يمكن أن أتكلم عنك مع أحد، وتعرف أن أبحاثك مفهومة جيدًا!

قلت بلهجة نافذة الصبر: ولكن لم تقل إنني أستطيع أن أكلمك أكثر من الآخرين، هه! ماذا عرفت عني؟

– عرفت أنك كنت مريضًا.

– لكن هذا لا يفيد في ..

– آه! إنه مهم للغاية. قيل لي: إنك كنت تخرج وحدك وبإرادتك، بلا كتاب! وهنا بدأت في الدهشة! وعندما لا تكون وحدك تكون في صحبة امرأتك أو الأطفال ... لا تحمر خجلًا ... وإلا فلن أتابع كلامي.

– دون أن تنظر إليَّ.

– أحد هؤلاء الأطفال كان يُسمَّى مختارًا كما أذكر، جميل مثل جلده، ولص وزمار مثل الآخرين، ويبدو لي أنه يستحق أن أتكلم عنه طويلًا، لقد اشتريت ثقته، وأنت تعرف أن هذا ليس سهلًا، أعتقد أنه كان يكذب وهو يقول إنه لا يكذب ... هل ما حكاه لي عنك حقيقي؟

– قام «مينالك» وأخرج علبة صغيرة من درج وفتحها، قال وهو يمد لي شيئًا ما ليعرفني: هل هذه المقصات كانت ملكًا لك؟ إنها صدِئة، من الأبونيت المزيف، لم أجد صعوبة في التعرف على هذه المقصات الصغيرة التي يملكها مختار.

– إنها ملك زوجتي.

– برغم أنك صاحبها، وأنك أدرت رأسك ذات حين كنت وحدك معه في الغرفة، المهم ليس هذا؛ فهو يزعم أنه أخفاها في ملابسه، وأدرك أنك كنت تراه في المرآة، وفوجئ بأنك تنظر إليه بدهشة، رأيته يسرق ولم تقُل شيئًا! لقد أصابت الدهشة مختارًا نتيجة لهذا الصمت ... وأنا أيضًا.

– ليس هذا مهمًّا، لقد تمتعت بما فيه الكفاية بهذه اللعبة؛ فهؤلاء الأطفال يلهون بنا دائمًا، واعتقدت أنك أمسكت به، ولكنه هو الذي أمسك بك ... ليس هذا مهمًّا، فسر لي سبب صمتك.

– أردت أن يفسر لي ذلك.

– ظللنا صامتين لبعض الوقت. راح «مينالك» يمشي في غرفته الواسعة، ثم أشعل سيجارته، وما لبث أن ألقاها لتوه، وعلق:

– هناك «حِس» مثلما يقول الآخرون، حس يبدو أنك تفتقده يا عزيزي «ميشيل».

قلت وأنا أجاهد في أن أبتسم: الحس الروحي؟ ربما.

– أو ببساطة حس الامتلاك.

– أعتقد أنك لم تُحس به قط.

– لقد أحسسته قليلًا، انظر هنا، لا شيء يخصني في هذا المكان، لا شيء بالمرة حتى السرير الذي أنام عليه، كم أشعر بالخوف من الراحة، إن الامتلاك أو الملكية تشجعني على ذلك، مما يجعلني لا أنام في أمان. أحب أن أعيش كي أزعم لنفسي أنني أحيا، وكي أحفظ نفسي، حتى في قمة ثرائي؛ فإن هذا الإحساس يصيبني بحالة من الحذر والضيق. فأروح أعطي الحماس لحياتي، لا أستطيع أن أزعم أن الحب خطر، ولكنني أحب حياة المصادفات، وأريد منها المزيد في كل لحظة، وبكل شجاعة، وكل سعادة، وكلي موفور بالصحة.

قاطعته: إذَن، ماذا يقربك مني؟

– آه! أنت تفهمني بشكل سيئ. يا عزيزي «ميشيل»، لقد حاولت — بشكل غبي — أن أوقظ ضميري.

يا صديقي «ميشيل» لو انشغلت كثيرًا أو قليلًا بمشاكل الناس، فليس هذا بدافع القبول أو الرفض، هذه الكلمات لا تعني شيئًا كبيرًا بالنسبة لي، لقد كلمتك كثيرًا عن نفسي، معتقدًا أنني أتورط في الكلام، لقد أردت أن أخبرك أن هناك أشخاصًا لا يمتلكون حس الملكية ويبدو أنك تملك الكثير، وهذا شيء خطير.

– ماذا أملك إذَن؟

– لا شيء، إذا أخذت الأمر بهذا المفهوم ... فعليك ألا تكمل أبحاثك. ألست مالكًا في مقاطعة «نورماندي»؟ ألم تجئ من مقامك هناك؟ ألم تعش حياة بذخ في يأس؟ أنت متزوج وتنتظر طفلًا، أليس كذلك؟

قلت وقد نفذ صبري: حسنًا! هكذا يثبت ببساطة أنني أعرف كيف أمارس حياة أكثر خطورة — مثلما تقول — منك.

كرر «مينالك» بقوة: طبعًا ... ببساطة.

ثم استدار فجأة ومد لي يده:

– إذَن، وداعًا، يكفي هذا في مسائنا، لن نقول أفضل من ذلك، إلى اللقاء قريبًا.

– ولم أرَه بعد ذلك لفترة طويلة.

– شغلني الهم والقلق من جديد، ذات يوم مدني أحد العلماء الإيطاليين بوثائق جديدة؛ حيث كنت أقيم أبحاثي، أحسست بدرسي الأول صعبًا على الفهم، وأنه قد فتح شهيتي من أجل التوضيح بأسلوب مختلف، وخاصةً الدروس التالية، رحت أفهم من خلال تجربتي

بأن كل ما فعلته كان من قبيل المصادفة، وأنه كم من المثقفين يجب أن يمارسوا قوتهم في هذا المضمار؛ لأنهم لم يفهموا نصف كلمة، أما بالنسبة لي فلم أستطع أن أفهم حتى كلمة، وأعترف بذلك، إنه جزء من العناد الذي امتزج بحالة من الثقة الطبيعية، وما كان عليَّ أن أقوله من جديد، بدا لي أكثر عجالة، وأصبح من الصعب عليَّ أن أقوله، بل وأن أسمعه.

لكن كم من العبارات تصبح شاحبة عندما نكتبها! فهل كانت الحياة، عند أقل بادرة من «مينالك» أكثر بلاغة من أبحاثي؟ آه! لقد فهمت جيدًا في تلك الفترة أن التعليم شيء معنوي لدى العديد من الفلاسفة القدامى الذين كانت لديهم حصيلة كبيرة من الكلمات.

رأيت «مينالك» في بيتي بعد ثلاثة أسابيع من لقائنا الأول. حدث ذلك بعد اجتماع حضره الكثيرون، وكي نتجنب أي إزعاج يومي فضلت أنا و«مارسلين» أن نترك أبوابنا مفتوحة في مساء يوم الخميس، ثم نقوم بإغلاقها في الأيام الأخرى، وفي كل خميس يأتي أصدقاؤنا. يتيح لنا اتساع قاعتنا أن نستقبل أعدادًا كبيرة منهم، يطول الاجتماع كثيرًا قبل أن يحل الليل، أعتقد أنني أجذبهم، خاصة بطيبة «مارسلين».

وحمية النقاش فيما بينهم، أما بالنسبة لي فلم أجد منذ الأمسية الثانية من هذه الأمسيات شيئًا يستحق أن نسمعه ولا أن أقوله، رحت أخفي ضيقي، وأنا تائه من حجرة التدخين إلى الصالة؛ فالغرفة القديمة، والمكتبة، أردد أحيانًا جملة، وأتأمل شيئًا، وأتطلع حولي كأنني تائه.

راح «أنطوان»، و«إيتيان»، و«جود فري» يتناقشون في الغرفة وهم يستندون على مقاعد زوجتي، أما هوبير ولوي فقد راحا يتحسسان بلا حذر، وجربا المياه المتجمدة في مجموعة أبي. وفي غرفة التدخين وضع «ماتيا» سيجارة فوق المائدة كي يسمع «ليونارد» بشكل أفضل.

كانت المائدة مصنوعة من خشب الورد وفوقها كأس من الكوارسو، انسكب فوق السجاد، أما قدما ألبير الموحلتان فقد داسَتا فوق أريكة، ولطختا القماش أما الدخان الذي يتنفسونه فقد جعل من استعمال الأشياء أمرًا مرعبًا ... وانتابتني رغبة غامضة أن أدفع كل ضيوفي في أكتافهم، لقد فقدت الموبيليا والأقمشة والأوشام كل قيمتها عند أول محاولة؛ فاتسخت أشياء وأشياء أصابها المرض، وكأن الموت قد ترك أثره فيها، أردت أن أصور كل شيء وأن أضع على كل شيء مفتاحًا خاصًّا بي، فكرت أن «مينالك» سعيد برغم أنه لم يحصل على شيء! أما أنا فأريد أن أحتفظ لنفسي بكل ما يسببه لي من معاناة، وأن أتساءل من أجله، فماذا يهمني في كل هذا؟

في صالة صغيرة أقل إضاءة يفصلها زجاج بلا قصدير، لم تستقبل «مارسلين» سوى بعض المقربين، كانت متمددة فوق إحدى الأرائك، وبدت شاحبة تمامًا، ورأيتها بالغة التعب؛ فأحسست بالخوف، مما جعلني أؤكد أن هذا الاستقبال سيكون الأخير من نوعه. كان الوقت متأخرًا، ورحت أنظر إلى ساعتي، وأحسست أن في جيب سترتي مقصات مختار الصغيرة.

– لماذا سرقها؟ هل من أجل تدميرها وإتلافها؟

في تلك اللحظة طرق أحدهم على كتفي، فاستدرت فجأة، إنه «مينالك». إنه تقريبًا الوحيد الذي يرتدي زيه الرسمي، جاء لتوه، شدني كي أقدمه إلى زوجتي، لم أكن قد فعلت ذلك بعد. بدا «مينالك» أنيقًا ووسيمًا، وله شوارب متهدلة ومجعدة تجعل وجهه أشبه بوجه القرصان، ينم البرود على وجهه عن كثير من الشجاعة والحيرة والطيبة. لم يكن أمام «مارسلين» سوى أن تخبرني أنه لا يروق لها، وبعد أن تبادل معها العبارات الجامدة اللطيفة، سحبته إلى غرفة التدخين.

في الصباح علمت المهمة التي كلفه إياها وزير المستعمرات، فقد تحدثت صحف كثيرة عن الموضوع، وعن مغامراته التي يبدو أنها تنافت مع قواعد مهنته، في الأمس بالغت الصحف كثيرًا فيما يتعلق بالخدمات المؤداة للوطن وللبشرية من قبل الاكتشافات التي أسفرت عن استكشافاتهم الأخيرة، بدا كل شيء كأنه لا يلتزم بأمر إلا لهدف إنساني، برغم أنني عهدت فيه التفاني من أجل الآخرين، والإخلاص، والجرأة، وكأنه قد استعاد شيئًا من حقه من كل هذا المديح.

بدأت أهنئه، فقاطعني عند الكلمات الأولى قائلًا:

– ماذا وأنت أيضًا يا عزيزي «ميشيل»، أنت تشتمني، اترك هذه السفاسف للصحف، إنهم يَبدون مندهشين أن رجلًا له تقاليده يمكن أن تكون له بعض الفضائل، لا أعرف كيف أمارس بنفسي تلك الامتيازات والمزايا التي يزعمونها، إنها جميعها أشياء عمومية، لا أزعم شيئًا سوى كل ما هو طبيعي؛ فالمتعة التي أحسها تجعلني أشعر أنني يجب أن أفعلها.

– قلت له: هذا يمكن أن يذهب بك بعيدًا.

رد «مينالك»: لقد حسبتها جيدًا، إذا كان كل من يحيطون بنا يمكنهم إغواؤنا هكذا؛ فإن أغلبهم يفكر ألا يحصل بنفسه على مكسب جيد إلا من خلال الضغط، لا يعجبهم سوى الضغط، فمن خلاله يزعم كل إنسان أن به تشابهًا خاصًّا، كل شخص يختار رئيسه ثم يثيره، حتى ولو لم يختر الرئيس الذي يغضبه، فهو يوافق على الرئيس الذي اختاره.

وأعتقد أن هناك أشياء أخرى يجب قراءتها في الإنسان، ونحن لا نجرؤ، لا نجرؤ أن ندير صفحة، إنه قانون الإثارة، كما أسميه قانون الخوف، نحن خائفون أن نكون وحدنا، وألا نجد شيئًا، هذا الإرهاب المعنوي يبدو لي بشعًا، إنه الجبن المزدوج، تُرى من يحاول؟ إنه الشخص الذي يُحس في نفسه بالتناقض، وهو أيضًا الذي يمكنه أن يمتلك شيئًا من الندرة، ويرتبط بكل ما يعطيه أي إنسان للأمر من قيمة، وما يحاول أن يبرزه ويثيره، ويزعم أنه يحب الحياة.

تركت «مينالك» يتكلم عما حدث له قبل شهر من ذلك الحادث، أما أنا فقد تحدثت إلى «مارسلين» كي أؤكد لها كلامه، لكنه — وبكل جبن — قاطعني، كررت عليه — مثيرًا «مارسلين» — الجملة كلمة كلمة:

– عزيزي «مينالك» ... لا يمكنك أن تطلب من كل شخص أن يختلف عن الآخرين.

سكت «مينالك» فجأة، ونظر إليَّ بطريقة غريبة، ثم استسمح مني وأدار ظهره بلا مبالاة، ثم راح يتحدث مع «هكتور» في أشياء غير مفهومة.

وكما قلت، فإن عبارتي بدت لي غبية، وأحسست أنه يمكن أن تجعل «مينالك» يصدق أنني أتحسس بالهجوم في كلماته، كان الوقت متأخرًا، وضيوفي قد رحلوا، وعندما خوت القاعة عاد «مينالك» إليَّ، وقال لي:

– لا أستطيع أن أترككما هكذا، لقد فهمت — بلا شك — كلماتكما خطأ.

أجبت: لا، أنت لم تفهم خطأ، ولكنها كانت بلا معنى، ولم أقلها إلا لأنني أعاني من حماقاتهم، وخاصةً أنني أحس أنها تحقرني في عيونكم، وكأنكم أقمتم محاكمة لنا، أنا أؤكد أنني أكره وقاحتي مثلكم، وكل الرجال أصحاب المبادئ.

رد «مينالك» ضاحكًا: إنهم كذلك، الناس الأكثر كراهية في العالم، نحن لا نكنُّ لهم أدنى قدر من زلاتهم فهم لا يفعلون — قط — ما يتفق مع مبادئهم، إنهم ينظرون إلى ما يفعلونه كأنه أمر سيئ؛ فيكاد الشك يكون واحدًا منهم. أحسست بالكلمة تتجمد على شفاهي، أما الشجن الذي استبدَّ بي فقد عرَّفني كيف أن عاطفتي لا تزال حية نحوكما، لقد تمنيت أن أكون دنيئًا، ليس في عواطفي، ولكن في الحُكم الذي أصدره.

– في الحقيقة إنَّ حكمك خاطئ.

– قال وهو يمسك يدي فجأة. ليس هذا هو المهم، فيجب أن أرحل قريبًا. كنت أريد أن أراكما، سيكون سفري هذه المرة أكثر طولًا من كل السفريات السابقة، ولا أعرف متى سأعود. يجب أن أرحل خلال الأسبوعين، فلا أحد يعرف شيئًا عن موعد رحيلي، وها أنا

ذا أعلنه لكما في سرية، سوف أرحل عند الفجر، وليلة الرحيل بالنسبة لي في كل مرة ليلة معاناة مخيفة، وبصفتك رجل مبادئ: هل يمكن أن أعتمد عليك أن تقضي هذه الليلة الأخيرة قريبًا مني؟

قلت له: لكننا سنلتقي.

– لا، سأكون مشغولًا خلال الأسبوعين، لن أكون في «باريس»، غدًا سوف أرحل إلى بودابست، وطوال عشرة أيام يجب أن أكون في روما، هنا أو هناك يوجد أصدقاء أريد أن أودعهم قبل مغادرة أوروبا، وهناك شخص آخر ينتظرني في مدريد.

– حسنًا، سوف أقضي ليلة الرحيل معك.

– وسوف نشرب نبيذ شيراز.

وبعد بضعة أيام من هذه الأمسية بدأ حال «مارسلين» يسوء، فقد استبدَّ بها التعب، كانت تتجنب الشكوى، ولأنني أُعِدُّ نفسي مسئولًا عن هذا التعب فقد وجدت أن هذا شيء طبيعي، وتجنبت إثارة القلق. أخبرنا طبيب عجوز أن الوقت أزف، وأثناء هذا حدثت متاعب جديدة مصحوبة بحمى، جعلتني أستدعي الطبيب، وهو أمهر المتخصصين، أدهشه أنني لم أستدعه قبل ذلك، وأَوصى بنظام علاجيٍّ متشدد، كان عليها أن تتبعه منذ وقت طويل، وبحذر شديد، وأصبح على «مارسلين» أن تتصرف بدءًا من هذا اليوم وحتى نهاية شهر يناير بشكل مختلف؛ فعليها أن تجلس فوق المقعد طويلًا، بدون أي قلق، فلازمها الكثير من الاكتئاب الذي لا تريد أن تعبِّر عنه.

رضخت «مارسلين» تمامًا لتعليمات الطبيب، ولكنها غضبت قليلًا عندما طلب منها الدكتور أن تتناول «الكينين»؛ لأنها كانت تعرف أن ابنها يمكن أن يعاني منه طوال الأيام الثلاثة؛ لذا رفضت بإصرار شديد أن تتناوله، فازدادت الحمى، ثم كان عليها أن تمتثل، ولكن حدث هذا مع الكثير من الأسى، كأنها تتخلى عن المستقبل، وبنوع من الامتثال للقدر رضخت للرغبة التي كانت تعتمل فيها حتى ذلك الحين بطريقة جعلت حالتها تزداد سوءًا طوال الأيام التالية.

رحت أحيطها بأكبر عناية ممكنة. وتصرفتُ على أحسن ما يكون، وأنا أكرر كلمات الدكتور الذي لم يرَ أن حالتها جسيمة للغاية، ولكن العنف الذي صاحب خوفها انتهى بأنني أعلنت الطوارئ بدوري.

آه! كم هو خطير أن تتوقف سعادتنا على الأمل وعلى مستقبل مجهول، خاصةً بالنسبة لي أنا، لم أجد طعمًا للأشياء إلا في الماضي، إن إنقاذها المفاجئ حتى لو للحظة مكنني أن أتألم يومًا، كما رحت أفكر، لكن المستقبل يفسد الحاضر أكثر من أن يفسد الحاضر الماضي.

وفي أثناء ذلك، حل المساء الذي وعدت به «مينالك»، وبرغم تبرمي أن أترك «مارسلين» في أمسية شتوية؛ فقد نجحت أن أجعلها توافق على شرف الموعد، كي أوفي بوعدي، بدت «مارسلين» في أحسن حالاتها في هذا المساء، ومع ذلك كنت قلقًا، ورحت ألزم مكاني إلى جوارها، ولكن في الشارع اكتسب قلقي قوة جديدة، فرحت أدفعها كأنني أناضل ضدها، وأثور ضد نفسي قائلًا: من الأفضل أن أتحرر منها، بلغت هذا شيئًا فشيئًا إلى أن وصلت إلى حالة عالية من التوتر والحماس الفريد، والمختلف تمامًا، وقريبًا من القلق المؤلم الذي قد يضطرها للولادة، ولكن على مقربة منَّا توجد سعادة.

كان الوقت متأخرًا، وسرت بخطى كبيرة. كان الجليد قد بدأ في التساقط والانهيار، أحسست بالسعادة وأنا أتنفس جو الليل المنعش، وأنا أناضل ضد البرد، وكنت سعيدًا وأنا أمشي ضد الريح في الليل، وفوق الجليد، ورحت أحتفظ بطاقتي.

رأيت «مينالك» وقد جاء يستقبلني فوق درجات السلم، ينتظرني نافد الصبر، بدا شاحبًا ومنهكًا قليلًا. خلع عني المعطف، وأجبرني أن أغير حذائي الطويل المبلل، وأن أرتدي خفًّا فارسيًّا طريًّا، وفوق منضدة قريبة من النيران كان قد وضع قطع الحلوى ومصباحين يضيئان الغرفة، سألني «مينالك» عن صحة «مارسلين»، وكي أخفف من حدة الأمر، أجبته:

– إنها على أحسن ما يرام.

قال: هل تنتظران طفلكما قريبًا؟

قلت: خلال شهر.

انحنى «مينالك» نحو النيران، وكأنه يريد أن يخفي وجهه، صمت وسكت طويلًا لدرجة أثارت اهتمامي، لا أعرف ماذا أقول له، قمت وتحركت بعض خطوات، ثم اقتربت منه، ووضعت يدي على كتفه في حين استغرق هو في التفكير. همست: يجب أن تختار. المهم هو أن تعرف ماذا تريد؟

سألته وأنا أحس أنني يجب أن أعطيه كلمتي: ألا تود الرحيل؟

– يبدو …

– هل أنت متردد؟

– مِمَّ؟ أنت لك امرأة وطفل. أما أنا فعرفت شكلًا من الحياة لا أحد يعرفه سوى من جرَّبه، كم أتمنى السعادة للآخرين، إنه لمن الجنون ألا تعرف كيف تمارس السعادة، أعرف أنني سأرحل غدًا، حاولت أن أصنع سعادة على مقاسي … احتفظ ببيتك سعيدًا وهادئًا.

صحت: إنها قامتي التي أحاول أن أقيس سعادتي عليها، ولكنني كبرت الآن، وسعادتي تقبض عليَّ، وأحس أحيانًا أنني أختنق.

قال «مينالك»: ياه! سوف تفعل.

ثم اتجه نحوي، وحَدَّق في عيني، لم أجد شيئًا أقوله. ابتسم بحزن. وردَّ: نعتقد أننا نملكه، ونحن نملكه، اسكب كل «الشيراز» يا عزيزي «ميشيل»، لن تذوق مثل طعمه أبدًا، وكُل من هذه الفطيرة الوردية التي يصنعها الفُرس، أريد أن أشرب هذا المساء وأنسى أنني راحل غدًا، وأتحدث طول الليل.

هل تعرف ماذا يحدث الآن للشعر؟ وماذا عن الفلسفة؟ هل مات الأب؟ إنها أشياء منفصلة عن الحياة، لقد كان للإغريق فكرة عن الحياة المثالية؛ حيث كانت حياة الفنان حقيقية شعرية، وحياة الفيلسوف مستمدة من فلسفته وممتزجة بالحياة، وبدلًا من أن تدَّعي الجهل؛ فإن الفلسفة تتغذى من الشعر، والشعر يعبر عن الفلسفة، كان هذا شيئًا رائعًا اليوم؛ فإن الجمال لا يبقى طويلًا، كما أن الحكمة تنتفي. قلت له: لماذا تعيش حكمتك؟ ولماذا لا تكتب مذكراتك؟

أجبت وأنا أراه يبتسم: آه، ببساطة ذكريات رحلاتك؟

علَّق: لأنني لا أريد ذكرياتي، أعتقد أن هذا يمنع وصول المستقبل، وأنَّ تجاهل الماضي أفضل شيء لنسيان الأمس، لم أكن سعيدًا دومًا؛ فهذا لا يكفيني.

أثارتني كلماته التي تسبق فكرتي، حاولت أن أنسحب للوراء، وأن أوقفه، حاولت أن أعارضه؛ فقد أثارني ضد نفسي أكثر مما أثارني ضد «مينالك»؛ لذا التزمت الصمت، أما هو فكان يتحرك جيئةً وذهابًا وكأنه وحش في قفص، أو كأنه متعلق في نيران، وسكت طويلًا، ثم قال فجأة: إذا كانت عقولنا المحدودة تعرف كيف تحتفظ بالذكريات؛ فإنها تحتفظ بها بشكل سيئ، والذكريات الرقيقة تتبخر، والأكثر روعة تفسد. والأكثر لذة تعقبها الأكثر خطورة. نحن إذن نتذكر أكثرها لذة أولًا.

ومرة أخرى خيم صمت طويل، ثم عاد يتكلم: أسف، وندَم، وتوبة، إنها أشياء قريبة العهد، لا أحب أن أنظر إليها من الخلف، إنني أترك الماضي خلفي بعيدًا كأنه عصفور يطير ويترك ظله. آه، يا «ميشيل»! كل البهجة تنتظرنا دومًا، لكنها تريد أن تجد العش الخاوي، أن تكون وحيدة، وأن تصل إليها كأنها أمل. آه يا «ميشيل»! تبدو كل البهجة في هذه الصحراء التي تفسد من يوم لآخر، إنها أشبه بماء منبع إميليه الذي حكى عنه أفلاطون، لا يمكن الاحتفاظ بها في أي آنية، وفي كل لحظة تفرغ كل ما تحمله.

تكلَّم «مينالك» طويلًا أيضًا، لا أستطيع أن أذكر هنا كل جملة؛ فالكثير منها قد تضاخم في داخلي، إنها أكثر قوة من أن أحاول أن أنساها بسرعة، ليس لأنها بدت لي وكأن لا جديد فيها، ولكنها راحت تعري أفكاري، أفكار اكتشفت أن عليها أستارًا، وأنني قد خنقتها تقريبًا، وانسابت في السهرة.

وفي الصباح، بعد أن رافقت «مينالك» إلى القطار الذي أقلَّه، سرت وحدي عائدًا إلى «مارسلين»، أحسست نفسي مُفعمًا بالحزن الشديد من هذا الحقد ضد سعادة «مينالك» المجنونة، وددتها أن تنفعل، حاولت أن أتجاهلها، أحسست بالثورة؛ لأنني لم أعرف كيف أرد عليه، شعرت بالغضب لأنه قال بعض كلمات حاول فيها أن يشكك في سعادتي وفي حبي، لدرجة أنه قال: إن سعادتي أمر مشكوك فيه، «هذه السعادة الساكنة» كما قال «مينالك». لم أستطع أن أبعد القلق عن نفسي، ولكنني أزعم أن هذا القلق يفيد في تغذية الحب، تطلعت نحو المستقبل ورأيت فيه ابني الصغير يبتسم لي، وقد تشكلت فيه روحي وارتسمت؛ لذا قررت أن أمشي فيه بخطًى ثابتة.

عندما عدت في الصباح إلى البيت صدمَني شيء غير مألوف منذ الوهلة الأولى، فقد هرولت الحارسة لتقابلني، وأخبرتني بكلمات مرتعدة أن ألًا مخيفًا قد انفرد بزوجتي في الليل، ثم اشتد عليها، لم تكن تؤمن بخطر البدانة، وأحسَّت بألم شديد، أرسلت في طلب الطبيب الذي جاء مهرولًا أثناء الليل، ولم يترك المريضة قط، أرادت الحارسة حين لاحظت شرودي أن تجعلني أتماسك، قالت: إن كل شيء على ما يرام، وإن … وأسرعت نحو حجرة «مارسلين».

كانت الغرفة خافتة الضوء، في البداية لم أميز الطبيب الذي أمسكني بيده كي أظل ملتزمًا الصمت، ثم بدأ الظلام يكشف عن وجهٍ لا أعرفه، اقتربت قلقًا، وبدون أن أحدث ضجة دنوت من السرير، كانت «مارسلين» مغلقة العينين، شاحبة أكثر مما أعتقد، كأنها ميتة، أدارت رأسها نحوي بدون أن تفتح عينيها. في ركن الغرفة المظلم بدا الوجه غريبًا ويخفي أشياء عديدة، ورأيت الأجهزة اللامعة. ورأيت — أو اعتقد أنني رأيت — خطًّا من الدم، وشعرت أنني أترنح، ثم اتجهت نحو الطبيب الذي أسندني. فهمت، وخفت أن أفهم، سألته بقلق: والصغير!

هز كتفه بحزن بدون أن أعرف ماذا أفعل. ألقيت بنفسي فوق السرير وأنا أنتحب. آه! يا له من مستقبل! تمددت الأرض فجأة تحت خطوتي، وأمامي لم أرَ سوى فراغ حيث رحت أترنح بكامل جسدي.

راح كل شيء يخوض في ظلام الذكريات، وبدأت «مارسلين» تتحسن بسرعة، وتركت لي إجازات بداية العام القليل من الراحة، استطعت أن أبقى على مقربة منها طيلة ساعات النهار، كنت أقرأ عليها، لم أخرج قط إلا وأحضرت لها بعض الزهور. رحت أتذكر عنايتها الرقيقة التي أحاطتني بها عندما كنت مريضًا، أحطتها بالكثير من الحب الذي منحته لي فيما قبل وهي سعيدة، لم نتبادل أي كلمة بشأن الحادث التعس الذي قتل أملنا.

قيل: إنه التهاب في الوريد، وعندما بدأ في الزوال أصابها انسداد في الشريان، مما وضع «مارسلين» بين الحياة والموت.

كان الجو ليلًا ووجدت نفسي مرتميًا عليها وأحس من خلالها أن قلبي يدق أو يعود إلى الحياة.

يا لها من ليالٍ سهرت فيها طويلًا، مركزًا نظراتي الجامدة عليها، آملًا بقوة الحب أن أهب لحياتها القليل من حياتي.

لم أفكر طويلًا في السعادة وكان حزني وفرحي هو أن أرى «مارسلين» تبتسم.

انقبض قلبي، أين أجد القوة لأعد أبحاثي، ولأقولها: ضاعت ذكرياتي ولم أعرف كيف تتابعت الأسابيع ثم حدثت واقعة صغيرة أريد أن أخبركم بها:

ذات صباح وقعد وقت قليل من الأزمة كنت قريبًا من «مارسلين» التي بدت في حال أفضل ولكن أحسن الحال ما زال ينقصها، ولم تقدر أن تحرك سوى ذراعيها.

انحنيت كي أساعدها لكي تشرب، وعندما شربت انحنيت نحوها أيضًا، وبصوت أضعفه آلامها رجتني أن أفتح خزانة أشارت إليها بعينيها.

كانت الخزانة تحت المائدة؛ ففتحتها وكانت مليئة بشرائط من الأقمشة ومجوهرات صغيرة بلا قيمة، ترى ماذا تريد؟

أحضرت العلبة قريبًا من السرير، وبدأت أخرج كل شيء الواحد وراء الآخر.

هل هذا أو ذاك؟ لا لا، أحسست أنها قلقة. آه يا «مارسلين»، هل هذه المسبحة هي التي تريدين؟ حاولَت أن تبتسم.

– هل تخشين ألا أعتني بك بما فهي الكفاية؟

همست: آه! يا صديقي.

وتذكرت حديثي في «بسكرة»، وحساسيتها الشديدة وهي تسمعني أردد: فضل الله، استجمعت جأشي وقلت: لقد شفيت وحدي.

أجابت: لقد صليت طويلًا من أجلك.

قالت هذا برقة وبحزن، وأحسست في نظرتها بقلق يبتهل، وأمسكت المسبحة ثم وضعتها في يدها الواهنة المسترخاة فوق المفرش.

نظرة معبقة بالدموع والحب كأنها تكافئني، ولم أستطع أن أرد عليها وتأخرت لحظة، ولم أعرف ماذا أفعل.

وبقيت متضايقًا ولم أصِل إلى شيء.

قلت لها: وداعًا.

ثم تركت الغرفة بشكل عدواني وكأن شخصًا اصطادني.

وصل انسداد الشرايين إلى درجة خطيرة، جلطة دموية خطيرة، أصبح على إثرها القلب ضعيفًا ومنهكًا فأثَّر على الرئتين وأضعف التنفس وجعله صعبًا لاهثًا.

تصورت أنني لن أراها بعد ذلك؛ فلقد دخل المرض في «مارسلين» وسكن فيها أكثر وراح يرسمها ويترك علامته عليها، إنه لشيء مرعب!

(٣)

أصبح المناخ معتدلًا، وما إن انتهت أبحاثي حتى نقلت «مارسلين» إلى «لامورنيير» وأكد الطبيب أن كل الخطر قد زال، وكي يتم العلاج فليس هناك من شيء سوى الهواء النقي، وأنا أيضًا كنت في أشد الحاجة إلى الراحة، فقد طالت هذه السهرات التي تحملتها بنفسي، وخاصة هذا النوع من الحنان التلقائي الذي أحسسته نحو «مارسلين» حين أصابها انسداد الشرايين، وأحسست في داخلي نفس المشاعر المرعبة التي تحسها، أتعبني كل هذا وكأنني أنا نفسي مريض.

فضلتُ أن أرافق «مارسلين» إلى الجبال، ولكنها أبدت رغبتها القوية في العودة إلى «نورماندي»، زاعمة أن أي جولة تجعلها أفضل، وذكرتني أنه يجب أن أرى المزرعتين اللتين كلفتُ نفسي بعض العناية بهما، وراحت تقنعني أنني المسئول، وأنني يجب أن أنجح.

لم نصل إلى درجة أن تدفعني للجري فوق الأرض، ولم أعرف أن الكثير من التفاني قد دخل بيننا في إلحاحها المحبب، خاصةً أنني خشيت أن أعتقد أنني قريب منها فقط من أجل العناية بها، وأنني يجب أن أعطيها المزيد.

لم أحس أنني بكامل حريتي ... لقد راحت «مارسلين» تتحسن، وجرت الدماء في وجنتيها، ولم يجعلني شيء مستريحًا أكثر من الإحساس أن ابتسامتها أقل حزنًا، وأنني يمكن أن أتركها بدون خوف؛ لذا عدت إلى المزرعتين، وهناك حصدنا الشوفان.

كان الجو مليئًا بالأتربة والروائح التي خنقتني في بادئ الأمر مثل شراب ملتهب، بدا أنني منذ عام مضى لم أتنفسه، أو لم أتنفس أي أتربة، وجعلني أحس بالجو بشكل أفضل فوق المنحدر، حيث كنت أجلس وكأنني مُنحنٍ.

تذكرت «لامورنيير» ورأيت أسقفها الزرقاء، ومياهها الساكنة، وتلالها حول الحقول المحصودة، وأخرى مليئة بالعشب، وعلى مسافة بعيدة منحنى الجدول، وعلى بُعد أكثر تبدو الغابة التي تنزهت فيها خلال العام الماضي فوق الحصان مع «شارل». انطلقت الأغنيات التي راحت تقترب مني.

إنها طيور تكاد تحط فوق كتفي، هؤلاء العمال الذين أكاد أعرفهم يمثلون بالنسبة لي ذكرى غاضبة، اقتربت منهم، وابتسمت لهم، وتكلمت إليهم طويلًا، وراح «بوكاج» ذات صباح يخبرني بحالة المزروعات.

كان يراسلني بشكل منتظم، لم يكف عن إبلاغي بأقل حادث جرى في المزارع، كانت المحاصيل على ما يرام، أكثر مما لو كان «بوكاج» سيتركها لي، ومع ذلك راح ينتظر بعض القرارات المهمة، وخلال بضعة أيام، وجهتُ كل شيء على أحسن ما يكون، بلا أي إحساس بالمتعة، ولكن لمجرد أنني أهب لهذا النوع من العمل حياتي السيئة.

ما إن أصبحت «مارسلين» في أحسن حال حتى استعددت لاستقبال بعض الأصدقاء الذين جاءوا يسكنون معنا، كان مجتمعهم العاطفي والصاخب يعجب «مارسلين». لقد تركت المنزل كثيرًا عن طيب خاطر، فأنا أُفضِّل مجتمع سكان المزرعة.

بدا لي أنني يمكن أن أجد ما أتعلمه أفضل ... كنت أحس بهذا النوع من البهجة عندما أكون على مقربة منهم، وأشعر أنهم يعرفونني كثيرًا أثناء دوران الحوار بين أصدقائنا، أو قبل أن يبدءوا الكلام؛ لذا كانت رؤية هؤلاء الفقراء تسبب لي سعادة لا توصف.

قالوا أنهم سوف يردون على كل التساؤلات التي أتجنب أن أطرحها، وهكذا فإنهم يتحملون وجودي بشكل أفضل؛ لذا فسرعان ما أدخل في الحوار معهم، مثلما أحس بالسعادة وأنا أراقبهم يعملون، أردت أن أرى ألعابهم، وأحيانًا كنت أجلس معهم على مائدة الطعام، أو أسمع مزاحهم وأرقب سعادتهم.

وقد انتابتني مشاعر حب عاطفية أشبه بما أحسسته نحو «مارسلين»، إنه صدى سريع لكل إحساس غريب ليس جارفًا، ولكنه محدد وحاد.

أحسست في ذراعي تجاعيد رجل الحصاد، وكللت من التعب، وشربت خمر التفاح التي يشربونها، وأحسست بها ترويني وهي تنزلق في حنجرتي.

بدا لي أيضًا أن وجودي هنا ليس فقط من أجل الالتقاء بالطبيعة، ولكنني أحسست بنوع من المشاعر التي تثير هذا التعاطف الغريب.

كان وجود «بوكاج» يسعدني، وكان عليه أن يجعلني أُؤدي دور السيد عندما يأتي، ولم أرغب قط في هذا.

رحت أقوم بجولات وأوجه العمال على طريقتي، لكنني لم أمتط ظهر الحصان خشية أن أحس أنني سيدهم فعلًا برغم التحذيرات التي تنتابني حتى لا يعانوا كثيرًا لوجودي، ولا يُحرَج أحد أمامي.

لقد بقيت أمامهم — مثلما كنت فيما قبل — مليئًا بالفضول السيئ، وظل وجودهم غامضًا، وبدا لي أن جزءًا من حياتهم بالغ السرية، فماذا يفعلون عندما لا أكون هناك؟ لم أتصور أنهم لا يتسلون، رحت أعير كل واحد منهم سرًّا عاندت نفسي أن أعرفه. أخذت أطوف وأتابع وأتجول، واهتممت بطبائعهم الواضحة، وكأنني أستقي من جانبهم الغامض ما يمكن أن ينير لي بعض الجوانب.

أثار انتباهي واحد منهم، إنه جميل وطويل، وغبي تمامًا، لكنه أثار غريزتي، لم يكن يفعل شيئًا، إنه ليس من أبناء البلدة، تم التقاطه بالمصادفة، يعمل بمهارة طوال يومين، وفي اليوم الثالث بكَّر لدرجة الموت. تسللت ليلًا لكي أراه في صومعته، كان راقدًا وسط القمامة، يغط في نوم ثقيل لرجل ثَمِل، أخذت أدقق فيه لوقت طويل!

ذات يوم صحو رحل مثلما جاء، وعلمتُ في نفس المساء أن «بوكاج» قد طرده.

أحسست بالغضب من «بوكاج»، واستدعيته وسألته: يبدو أنك طردت بيير، هل لك أن تخبرني السبب؟

– لعل السيد لا يريد أن يحتفظ في مزرعته بسكير قذر، يمكن أن يفسد العمال.

– أعرف أفضل منك ما يجب أن أحتفظ به.

إنه متشرد! ولا نعرف من أين جاء؟ وفي هذه البلاد فإن صدى مثل هذا الأمر سيئ دائمًا ... إنه يمكن أن يشعل النيران في المزرعة ذات ليلة، ولعل سيادتكم سعيد لما حدث.

هذا الأمر يخصني، والمزرعة ملكي، وأعتقد أنني يمكن أن أدير ما يعجبني، وفي المستقبل حدثني عن دوافعك قبل أن تصدر حكم بإعدام أحد.

قلت: إن «بوكاج» قد عرفني طفلًا؛ لذا أصابه جرح من أسلوبي في الكلام، إنه يحبني لدرجة لا تجعله يغضب؛ لذا لم يأخذ الأمر على محمل الجد، لقد سكن الفلاح النورماندي طويلًا مؤكدًا أنه لن يتدخل في شيء، أي أنه لن يتصرف تبعًا لما يتمتع به من أهمية، لقد اعتبر «بوكاج» أن هذا الخصام نوع من النزوة العابرة.

ومع ذلك لم أود أن أفسد العلاقة بحدث عابر، رحت أبحث عما يمكن أن أضيفه، وسألته بعد لحظة صمت: ألا يمكن أن يعود ابنك «شارل» قريبًا؟

– قال «بوكاج» — وقد أحس بالجرح ورأيته قلقًا عليه: اعتقدتُ أن السيد قد نسِيه.

– أنا أنساه يا «بوكاج»؟! كيف يمكن بعد كل ما فعلناه معًا في السنة الماضية؟ إنني أعتمد عليه كثيرًا بالنسبة للمزارع.

– حسنًا يا سيدي، فعلى «شارل» أن يعود بعد ثمانية أيام.

– إذَن، فأنا سعيد يا «بوكاج».

– وأنا أيضًا.

كان «بوكاج» على حق، فأنا لم أنسَ «شارل»، ولكنني لم أولِه أي اهتمام؛ فكيف أفسر أنه بعد الصداقة القوية التي ربطتنا لم أحس نحوه إلا بفضول شجن؟ لعله انشغالي بأموري التي لم تكن مثل السنة الماضية.

كان يجب أن أهتم بالمزرعتين؛ فلم أكن أهتم من قبل إلا بالناس الذين يعملون عندي، وأن أجعلهم يتوترون، ولا شك أن وجود «شارل» سيكون مبهجًا، فهو مقنع للغاية وجدير بالاحترام، راحت المشاعر الجياشة تفيض بي وأنا أتذكره، وانتظرت مجيئه دون أي خشية.

لقد عاد، ثم كنت على حق في مشاعري، فقد ألقى «مينالك» كل ما يتعلق بالذكريات، رأيت رجلًا آخر يدخل بدلًا من «شارل»، إنه سيد مقصوص الشعر بدلًا من تلك القبعة السخيفة، يا إلهي! كم تغير! إنه يختلف تمامًا، حاولت ألا أردَّ بالكثير من البرود، استقبلته في القاعة ولأن الوقت ليل فلم أميِّز وجهه، ولكن عندما أضأت المصباح لاحظت أنه في أحسن حال.

بدا اللقاء كئيبًا، عرفت أنه لم يكفَّ عن الحضور للمزرعة، وتجنبت طوال ثمانية أيام الالتقاء به، وعكفت على أبحاثي، وعزفت عن ضيوفي، ثم بدأت في الخروج، وانشغلت من جديد.

ملأ الحطَّابون الغابة، إنهم يأتون إليها كل عام لقطع جزء منها، قسموها إلى اثنتي عشرة قطعة متساوية، كانت الغابة تقلُّ في كل عام، خاصةً بعض الأشجار التي ندر أن نجد مثلها، ففي خلال اثني عشر عامًا سوف تكون حطامًا.

تم هذا العمل في الشتاء، ثم قبل الربيع تم الاتفاق على البيع، كان على الحطابين أن يفرغوا من عملهم، ولكن نتيجةً لإهمال الأب «هورتفان»، تاجر الأخشاب الذي يدير العملية، جعل الربيع يأتي بسرعة، وتكومت الأخشاب عبر البقايا الميتة من الأشجار، وأخيرًا قام الحطابون بتفريغها، حدث هذا بعد أن أصابوا البراعم الجديدة في الصميم.

هذا العام تجاوز إهمال الأب «هورتفان» — المشتري — كل خشيتنا، كان يجب أن أترك له الشحنة بسعر بخس، هل سوف يضغط بقوة كي يقطع غابة اشتراها بثمن ضعيف؟ ومن أسبوع لآخر راح يمارس العمل محتجًّا أحيانًا على غياب العمال، وأحيانًا أخرى بأن الجو سيئ، ثم على حصان مريض، وعلى المسائل التمويلية الأخرى.

أغضبني هذا — إلى حد كبير — في الصيف الماضي، أما هذا العام فالأمر هادئ تمامًا، لم أخفِ الخطأ الذي فعله بي «هورتفان»؛ فهذه الغابة التي تحتضر كانت جميلة، رُحتُ أتنزه فيها سعيدًا منشرحًا، أرقب الصور، وأُفاجَأ بالأفاعي، وأجلس طويلًا فوق أحد الجذور النائمة التي تبدو كأنها على قيد الحياة، والتي تبرز منها بعض العساليج الخضراء من خلال الفتحات.

وفجأة — وفي النصف الأول من أغسطس — قرر «هورتفان» أن يرسل رجاله. جاء ستة رجال زاعمين أنهم يمكنهم إنهاء العمل في عشرة أيام، كان جزء من الغابة يكاد يلمس مقاطعة «فالتاري»، وافقت على تسهيل أعمال الحطابين، وأن أرسل لهم الطعام من المزرعة، وكان الرجل الذي عليه أن يقوم بذلك يُدعى «بوت». إنه أحد رجالي الذين كنت أتحدث إليهم عن طيب خاطر، حاولت أن أراه بدون أن أذهب من أجل ذلك إلى المزرعة؛ لأنني لم أكن أخرج في تلك الآونة إلا قليلًا، ولم أترك الغابة لبضعة أيام إلا قليلًا. ولم أعد إلى «لامورنيير» إلا من أجل ساعات الراحة.

كان عليَّ أن أرقب العمل، ولكن الحقيقة أنني كنت أرقب العمال.

أحيانًا ينضم إلى المجموعة من الرجال الستة اثنان من أبناء «هورتفان»، الأول في العشرين من عمره، والثاني في الخامسة عشرة، يبدوان نحيفان، وجامدَا الملامح وكأنهما من عرق أجنبي، وقد علمت فيما بعد أن أمهما إسبانية. اندهشت في البداية، كيف جاءت إلى هنا؟ ولكن «هورتفان» كان نزقًا في شبابه، قد تزوجها على ما يبدو في إسبانيا؛ ولهذا السبب كان محط أنظار البلد. في المرة الأولى التي فيها التقيت فيها بأصغر الشابين — كما أتذكر— كان المطر يهطل، وكان يجلس وحده فوق عربة مرتفعة وفوقها كومة عالية من أحزمة الحطب، تمدد بين الأفرع، وراح يغني ويدندن بأغنية غريبة لم أسمع بها قط في البلاد.

كانت الجياد التي تجرُّ العربة تعرف طريقها، تتقدم بدون أن يقودها أحد، لا أستطيع أن أتكلم عن التأثير الذي أحدثته هذه الأغنية فيَّ؛ لأنني لم أسمع مثلها إلا في أفريقيا ... بدا الصغير ثملًا، فعندما مررت لم ينظر إليَّ، وفي اليوم التالي عرفت أنه ابن «هورتفان».

ولرؤيته ثانية أو لانتظاره؛ فيجب أن أؤخر عملية قطع الأشجار، لم يأتِ وَلدَا «هورتفان» سوى ثلاث مرات، كانا يبدوان متباهيَين، ولم أستطع الحصول على كلمة منهما.

كان «بوت» — على العكس — يحب أن يحكي، وقد أدركت أنه سوف يفهم قريبًا أنه يمكن أن يتكلم معي، إنه لا يغضب أبدًا ويفهم البلد، اهتممت بسره الغامض، وفي كل مرة كان يخيب أملي، ولا يعمل على إرضائي، هل هو الذي يتذمر مدعيًا أن الأمر ليس سوى خداع جديد؟ وماذا يهم؟ سألت «بوت» وأنا أحدثه عن حياة القوطيين، وعن نصوصهم التي تخرج منها أبخرة كثيفة تصعد إلى رأسي ... وأخشى عند أقل عتاب بيننا، أن تُفقد بيننا الثقة، ابتسم، وبروح الفضول التي تنمو في داخلي.

قلت: والأم، ألم تقل شيئًا؟

– ماتت الآم منذ اثني عشر عامًا ... لقد قتلها.

– كم عددهم في الأسرة؟

– خمسة أطفال، لقد رأيت أكبر الأبناء والأكثر شبابًا، إنه في السادسة عشرة، وهو ليس قوي البنيان، ويريد أن يصبح قسًّا، ثم الفتاة الكبرى، وطفلًا من الأب ...

وعرفت — بالتدريج — أشياء أخرى، تجعل من منزل «هورتفان» مكانًا مشتعلًا، ذا رائحة نفاذة. راح خيالي يلفُّ حوله كأنه ذبابة تطن حول لحم، وهي تلفُّ. ذات مساء، حاول الابن الأكبر أن يغازل الخادمة، وحين راحت تقاوم، حاول الأب أن يساعد ابنه فاحتواها بين يديه القويتين، وأثناء ذلك كان الأخ الأصغر يستكمل صلاته في الطابق الأعلى، فيما ظل الأصغر شاهدًا على المأساة، يتسلى، تنبهت أن الأمر ليس صعبًا. لأن «بوت» بعد فترة طويلة حكى أن الخادمة أرادت أن تفسد القس الصغير.

سألت: ألم تنجح المحاولة؟

أجاب بوت: كان الأمر أكثر جسامة.

– ألم تقل: إن هناك فتاة أخرى؟

– أجل، لا يجب أن ننام عند الأب ... ولكن هذا أمر لا يهم الآخرين.

تشجعت من نظراته، وسألت: ألم تحاول؟

أخفض عينيه متصنعًا، وقال مازحًا: أحيانًا. ثم رفع عينيه بسرعة: والصغير أو «بوكاج» أيضًا.

– أي صغير؟ هل هو أبو «بوكاج».

– «السيد»، إنه الذي ينام في المزرعة. ألا يعرفه سيدي؟

أكمل «بوت»: حقًّا، ففي العام الماضي كان عند عمه، ولكن المدهش أن «السيد» لم يقابله في الغابة؛ لأنه يذهب إلى الصيد في كل مساء.

قال «بوت» هذه الكلمات الأخيرة بصوت خفيض وهو ينظر إليَّ، فهمت أنه متعجل الابتسام، ثم أكمل بوت وهو يحس بالرضاء: السيد يعرف مكانًا يصطادون فيه الحشرات، فالغابة أوسع من أن يكون فيها مكان واحد للصيد.

بدوت أقل حزنًا، رغم أن «بوت» قد تصور أنني سعيد من خدمة «بوكاج»، بيَّن لي في أي حفرة من القبة يتمدد «السيد» ALCID ثم عرَّفني أي ناحية من السياج يمكنني أن أفاجئه، كان المكان يقع فوق أعلى المنحدر، وهو مكان ضيِّق خلف السياج، يشكل حاجزًا، هناك حيث اعتاد السيد أن يقضي ست ساعات كل ليلة.

هناك كنا نتسلى جيدًا أنا وبوت، حيث نغرس وتدًا لا يمكن اكتشافه، وأقسم له أنني لن أتخلى عنه أبدًا. ولقد رحل «بوت» هو لا يريد أن يفعل شيئًا، أما أنا فقد تمددت فوق أرض المنحدر ورحت أنتظر.

انتظرت ثلاث أمسيات بلا فائدة، وبدأت أومن أن «بوت» قد خدعني، في الأمسية الرابعة سمعت وقع خطوات تقترب، خفق قلبي، وعرفت معنى الخوف اللذيذ المصاحب للترقب، كانت القبة قد غرست من قبل «السيد» بكل حرفية، رأيته فجأة يختبر الوتد النحاسي، أراد أن ينفذ منه، فسقط، وراح يضرب في الهواء كفريسة وقعت في مصيدة، لكنني أمسكته، إنه صبي وقح، أخضر العينين، أما شعره الأصفر فيبدو كأنه لشخص لئيم، ركلني بقدمه، ثم حاول أن يغضبني، وعندما لم ينجح ألقى على مسامعي أقذع الشتائم التي سمعتها في حياتي، وفي النهاية لم أستطع الإمساك به، فانفجرت ضاحكًا، ثم أوقفته فجأة، ونظر إليَّ، وبنبرة يائسة قال: أيها الوغد، إنك تؤلمني. انظر.

خفض جوربه إلى أسفل حذائه وأشار إلى ندبة ميزتها بصعوبة، بدت مائلة إلى اللون الوردي قليلًا. ابتسم قليلًا ثم قال بمكر: سوف أخبر أمي أنك وضعت الفخ في طريقي.

– يا إلهي، إنه واحد من فخاخك!

– بالتأكيد أنت الذي وضعتها هناك.

– ولماذا لا تكون أنت؟

– أنت لا تعرف جيدًا، أرني كيف تفعلها.

– علمني.

في هذا المساء عدت في ساعة متأخرة من أجل العشاء، وكالعادة وجدت «مارسلين» قلقة، لم أحكِ لها أنني أقمت ستة أطواق «مصائد» بعيدة عن زئير «السيد» الذي منحته ستة قروش.

في اليوم التالي رحت أراجع معه كل الأوتاد، وشعرت بالسعادة عندما عثرت على أرنبين بين المصائد، أطلقت سراحهما؛ فالصيد لم يكن من اهتماماتي، فماذا ستنتاب هذه الفريسة إذَن؟ وكيف يمكن أن نمسكها بدون أن نقترف خطأً؟ إنه «السيد» الذي أمسكها كما صرح لي. وأخيرًا عرفت من «بوب» أن «هورتفان» هو رجل أعمال، وأنه يجب أن أتدخل بين «السيد» وبين الشاب الأصغر من أبناء ألومسيين، أكثر من قبل في هذه الأسرة الغاضبة، لكن بأي عاطفة سوف أصطاد؟

كنت أقابل «السيد» في كل مساء؛ فنمسك الأرانب بأعداد كبيرة، أمسكنا في إحدى المرات ماعزًا صغيرًا، كان يتحرك بصعوبة، لا أتذكر أي بهجة سببها لي «السيد» وهو يقتله بدون خوف، لقد وضعنا الماعز في المكان الصحيح، حين استطاع ابن «هورتفان» أن يأتي للبحث عنه في الليل.

منذ ذلك الحين لم أخرج من المنزل في النهار — حسب إرادتي — حيث بدت لي الغابة الخاوية أقل جاذبية، حاولت أن أعمل بلا هدف؛ لأنني منذ أن انتهيت من دراستي الأخيرة رفضت أن أكمل الطريق، إنه عمل ناكر للجميل، وأصبح يسبب لي أقل قدر من البهجة، وأصبحت أقل ضجة في الريف، وأي صيحة كفيلة بإثارتي. كم من مرة جلست أقرأ بعيدًا عن نافذتي حتى لا أرى أحدًا يمر! وكم من مرة خرجت فجأة ... أما الشيء الوحيد الذي كنت قادرًا عليه فهو أنني أمتلك أحاسيسي.

ولكن عندما يحل الليل، والليل هنا يحل سريعًا، أحس أن ساعتنا قد حانت، فلا أشك حتى في الحمَّال، أخرج مثلما يخرج اللصوص، وتصبح عيناي كأنهما عينا طير الليل، فيشد العشب المتموج العالي انتباهي، وأيضًا الأشجار الكثيفة، ويحفر الليل كل شيء، وتبتعد الأشياء فتصبح الأرض بعيدة، والمسطحات عميقة، وتبدو الممرات حساسة، ونحس أننا نعيش وجودًا مظلمًا.

– ترى أين يتصور أبوك مكانك الآن؟

– في حراسة الحيوانات في الحظيرة.

كان «السيد» ينام هناك، وكنت أعرف ذلك، قريبًا من الحمام والدواجن، وكأنه يحبس نفسه هناك كل مساء، ويخرج من فتحة ضيقة من السقف، وتلتصق بملابسه روائح الدواجن الدافئة.

ثم فجأة يسقط الصيد، فيتسلل في الليل كأنه سيسقط في فخ، بدون أي إيماءة وداع، وبدون أن يقول لي: إلى الغد. كنت أعرف أنه قبل أن يعود إلى المزرعة فإن الكلاب تلزم الصمت. يقابل الصغير «هورتفان» ويسلمه العلف، ولكن أين؟ هذا ما لم تتوصل إليه رغبتي، تهديدات، ومكائد فاشلة، لم يكن آل «هورتفان» يتركون أحدًا يقترب منهم، لم أعرف أين يكمن سر هذا الانتصار الجنوني والسر الغامض الذي يتراجع دائمًا أمامي بالنسبة لهم؟ هل يمكن أن نتوهم الغموض بقوة الفضول، فنرى ماذا يفعل «السيد» حين يتركني؟ هل ينام فعلًا في المزرعة؟ آه لم أخفِ عنه احترامي له ولا ثقتي الزائدة فيه، لقد أثارني هذا، ومنحني بعض السلوى.

لقد اختفى فجأة، فأصبحت وحدي بشكل يثير الخوف، عدت عبر الحقول وسط العشب الكثيف. وقد أسكرني الليل والحياة البرية والفوضى، وتبللت ملابسي ولوثني الوحل، وغطتني الأوراق، ومن بعيد بدت «لامورنيير» بعيدة ونائمة، وكأنها ترشدني كالنار، خاصة مصباح غرفة «مارسلين»، لم أستطع أن أنام بالفعل فوق سريري، ولم أتوقف عن التفكير وقد لمسني خوف شديد.

كانت حصيلة الصيد هذا العام وفيرة من الأرانب، والأرانب البرية التي تتابعت على أوتاد المصايد، ورحت أرى كل شيء يمشي على ما يرام، «بوت» فظل يخبرنا طوال الأمسيات الثلاث أنه سوف يلحق بنا بدون أن يفعل ذلك.

وفي الأمسية السادسة من ليالي الصيد لم نجد أكثر من طوقَين من الاثني عشر، وعندما طلع النهار طلب مني «بوت» مائة قرش كي يشتري الخيط النحاسي؛ لأن الخيط الحديدي لا ينفع في شيء.

في صباح اليوم التالي، غمرتني السعادة حين رأيت عشرة أطواق عند «بوكاج»، وكان عليَّ أن أكافئه على حماسه الأكثر حمية مما كان في العام الماضي، لقد وعدته بعشرة مليمات لكل طوق ممسوك، وكان عليَّ أن أعطي مائة إلى «بوكاج»، وفي هذه الأثناء كان «بوت» قد اشترى لنا الخيط النحاسي بمائة قرش، فجمعت مائة جديدة لـ «بوكاج» الذي قال لي وأنا أهنئه: لست أنا الذي يجب أن تهنئه، إنه «السيد».

– أوه!

كم من دهشة يمكن أن تضيعنا؟ أحسست أنَّ عليَّ أن أتماسك.

– أجل، أكمِل يا «بوكاج»، ماذا تريد؟ «السيد»! أنا رجل عجوز، وأنا مشغول كثيرًا بالمزرعة، وأصبحت الغابة صغيرة عليَّ الآن! إنه يعرفها أحسن مني، إنه شخص لئيم، ويعرفها أفضل مني، حيث يروح يفتش ويحصد الصيد.

– أنا أعرف ذلك جيدًا يا «بوكاج».

– إذَن، مقابل المائة قرش التي منحته إيَّاها؛ فإنني سأترك خمسة قروش عن كل صيد.

– أقسم أنه يستحقها، عشرين طوقًا في خمسة أيام! لقد اشتغل بكل جدية، كما بذل الصيادون ما في وسعهم، وعليهم أن يستريحوا الآن.

– آه يا سيدي، فبقدر ما أعطَوا بقدر ما نالوا؛ فالصيد يباع بسعر طيب هذا العام، والسعر أعلى ببضعة قروش.

– ورُحت أمثل أنني أُصدق «بوكاج»، وأن ما يعنيني في هذا العمل ليس هو الربح المتضاعف الذي يراه «السيد» وأنا أراه يخدعني؛ فتُرى ماذا سيفعلان بالنقود هو و«بوت»؟ لا أعرف شيئًا من آخرين، إنهما يكذبان دومًا ويخدعانني لمجرد الخداع؛ فهذا المساء لم يأخذا مائة قرش فقط، بل عشر فرنكات أعطيتها لبوت، وحذرته أنها المرة الأخيرة؛ لأننا لو استعدنا الأطواق، فسوف تكون الخسارة كبيرة.

وفي اليوم التالي جاء «بوكاج» لزيارتي، بدا شديد الغضب، وكنت أكثر منه غضبًا؛ فترى ماذا حدث؟ أخبرني «بوكاج» أن «بوت» لم يعد إلا بصيد صغير من المزرعة، وأن إحدى الفرائس كانت بولندية، وعندما واجهه «بوكاج» بأول كلمة ردَّ عليه وشتمه، ثم رمى بنفسه عليه وضربه.

قال لي «بوكاج»: لو أذِن لي سيدي وأعطاني السلطة؛ فإنني سوف أطرده.

– سوف أفكر يا «بوكاج»، أنا شديد الأسف؛ لأنك قد تفقد هيبتك، وأنا أرى أن تدعني وحدي أفكر، وعُد هنا بعد أسبوعين.

وخرج «بوكاج».

لو احتفظت «ببوت» فسوف أفقد «بوكاج»، ولو طردت «بوت» فسوف أدفعه للانتقام، خسارة! لقد فسد، وأنا المذنب الوحيد؛ ولذا فعندما عاد «بوكاج» قلت: أيمكنك أن تخبر «بوت» أننا لا نود رؤيته هنا ثانية.

– ثم انتظرت ماذا يفعل «بوكاج»؟ وماذا يقول «بوت»؟ وفي المساء فقط سمعت صدى الفضيحة، لقد تكلم بوت، أدركته أولًا من صيحاته التي أطلقها في مسكن «بوكاج»، كان الصغير «السيد» هو الذي يضرب، أما «بوكاج» فكان يتحرك جيئةً وذهابًا، سمعته يقترب، خفق قلبي بقوة؛ لأنه لا يضرب من أجل الصيد، يا لها من لحظة صعبة على المرء! لقد طرحت كل المشاعر الكبرى، وعليَّ أن أتصرف حيالها بشكل حاسم، ترى أي تفسيرات سوف يختلقها؟ ترى هل سأتصرف بشكل سيئ؟ آه ... عليَّ أن أستعيد دوري.

دخل «بوكاج»، ولم أفهم شيئًا مما قاله، إنه أمر عبثي، ويجب أن أجعله يعيد ما قاله، إنه يؤمن أن «بوت» هو المذنب الوحيد، وقد أفلتت منه الحقيقة، وهي أنني أعطيت عشرة فرنكات إلى «بوت»، ولماذا أفعل؟ إنه رجل من «نورماندي»، لقد سرق «بوت» الفرنكات العشرة بالتأكيد، وهو يزعم أنني قد منحتها له، ثم أضاف الكذب إلى السرقة، وابتدع قصة لإخفاء سرقته، ليس «بوكاج» الذي يجب ألا نصدقه ... المسألة لا تتعلق فقط بالصيد؛ فقد كان السبب الحقيقي لأن يضرب «بوكاج» «السيد» هو أن الصغير قد بات خارج المنزل.

وهكذا أنقذت الموقف، على الأقل أمام «بوكاج»، فكل شيء على ما يرام، ترى أي غبي هو «بوت»! بالتأكيد لن تكون لي رغبة هذا المساء في الصيد الممنوع.

اعتقدت أن كل شيء قد انتهى، ولكن بعد ساعة ظهر «شارل»، لم يبدُ عليه أنه يمزح، فهو يبدو من بعيد أكثر صلعة من أبيه، على الأقل أكثر من العام الماضي.

– حسنًا يا «شارل»، أنت لم تذهب منذ فترة طويلة.

– إذا حاول سيدي أن يراني فليس عليه سوى أن يأتي إلى المزرعة، صدقني، أنا لا أحب الغابة، خاصة في الليل.

– آه. لقد حكى لك أبوك.

– لم يحكِ لي أبي؛ لأنه لا يعرف شيئًا، كم هو في حاجة لأن يعرف.

– انتبه يا «شارل»، لقد ذهبت بعيدًا.

– يا إلهي، أنت السيد وتفعل ما يحلو لك.

– أنت تعرف يا «شارل» أنني لا أسخر أبدًا من أحد، ولو فعلت ما يحلو لي فإن هذا لا يلغي سواي.

وهز كتفيه هزة خفيفة: كيف تريد أن يدافعوا عن مصالحك، عندما تهاجم بنفسك؟ لا يمكنك أن تحمي الحارس وتصطاده.

– لماذا؟

– لأنه ... آه ... يا سيدي، هذه كلها أشياء لئيمة بالنسبة لي، وببساطة فإنه لا يعجبني أن أرى سيدي يكوِّن عصابة مع هؤلاء الذين يعطلون العمل ويفسدونه.

قال «شارل» هذا بصوت مليء بالثقة، وبدا شخصًا نبيلًا، لاحظت أنه يتصرف كما يريد، وأنه يرى أن هذا حق؛ ولذا لُذتُ بالصمت، فأكمل: لدينا واجبات تجاه ما نملك، لقد علمني سيدي في السنة الماضية، ولكن يبدو أنه نسِي، يجب أن نأخذ هذه الواجبات مأخذ الجد، ونتخلى عن اللهو مع ... وإلا أصبحنا غير جديرين بما نملك.

وعمَّنا الصمت.

– هل هذا كل ما لديك لتقوله؟

– بالنسبة لهذا المساء، نعم يا سيدي، ولكن في أمسية أخرى إذا دفعني سيدي، ربما آتي لأقول له: إنني وأبي سنترك لامورنيير.

وخرج بخطًى بطيئة وهو يحييني، ثم رحت أفكر: «شارل»، إنه على حق، ولكن هل هذا ما يسميه «شارل» بالأملاك؟

جريت خلفه، ولحقت به في الليل، وبسرعة كي أؤكد على قراري المفاجئ: أخبر أباك أنني سأعرض «لامورنيير» للبيع.

حياني «شارل» بمهابة، وابتعد دون أن يقول كلمة، وبدا كل هذا عبثًا.

لم تتمكن «مارسلين» أن تنزل في هذا المساء من أجل العشاء، وأخبرتني أنها تعاني، صعدت مسرعًا — وقد ملأني القلق — إلى غرفتها؛ فأكدت لي توًّا: إنه ليس أكثر من لسعة برد كما توقعت، لقد أخذت بردًا.

– ألم يمكنكِ أن تتغطي؟

– بمجرد أن أحسست بالرعشة الأولى ارتديتُ الشال.

– ليس من الواجب أن ترتدي الشال بعدها، ولكن قبلها.

نظرت إليَّ، وحاولت أن تبتسم. آه! لعل يومًا سيئًا للغاية قد بدأ يجعلها تعاني، قالت لي بصوت عالٍ: هل تتماسك طالما أنا على قيد الحياة؟

لم أسمعها جيدًا. رأيت كل شيء يتفكك حولي، وكل ما تمسكه يدي، لم تعرف يدي ماذا تمسك، اقتربت من «مارسلين» ورحت أغطيها بالقبلات، لم تتماسك، وراحت تبكي على كتفي.

– آه! يا «مارسلين» لنرحل من هنا إلى مكان آخر، فسوف أحبك مثلما أحببتك في سورنتو ... لقد اعتقدت أنني تغيرت، أليس كذلك، لكن سوف تشعرين أن شيئًا لم يغير حبنا.

ولم أشفِ حزنها ... فهناك أمل ما قد تعلقت به.

لم يكن الشتاء قد تقدم بعد، لكن الجو كان منديًا وباردًا، وراحت براعم تنمو بدون أن تتلون، وأما ضيوفنا فكانوا قد تركونا منذ فترة طويلة، لم تعانِ «مارسلين» إلا من القيام بإغلاق المنزل، وخلال خمسة أيام كنا قد رحلنا.

القسم الثالث

(١)

مرة أخرى أن أغلق نفسي على حبي، ولكن كم أنا في حاجة إلى سعادة وسكينة؟ إنها «مارسلين» التي تمنحني ذلك، كأنها راحة أبدية لا تشعر أبدًا بالتعب، وكم أحسست أنها متعبة، وأنها في حاجة إلى حبي، رحت ألفها بحبي وأختلق الحاجة التي أعوزها، أحسست بآلامها التي لا تحتمل، سوف أظل أحبها إلى أن تُشفى.

آه! كم اعتنيت بها عاطفيًّا، وفي السهرات الرقيقة، مثلما يقوم آخرون بإحياء ضمائرهم وهم يبالغون في ممارستها. وهكذا طورت حبي، واستوعبته «مارسلين»، كما قلت، وكما أملت، فلا يزال ينبض فيها الكثير من الشباب، كما كانت تأمل، لقد هربنا من «باريس» كأننا نقضي ليلة عرس جديدة، ولكن منذ اليوم الأول لرحلتنا بدأ الألم يزداد، واضطررنا أن نتوقف في «نيوشاتل».

كم أحب هذه البحيرات ذات الضفتَين الأزورديتَين بلا أي رخام، ومياهها مثل المستنقع اختلطت طويلًا بالأرض، وتسربت بين عيدان البوص، كان عليَّ أن أجد غرفة من أجل «مارسلين» في فندق مريح تطل على البحيرة، ولم أتركها طيلة النهار.

راحت تتحسن برغم أنني منذ اليوم التالي أحضرت طبيبًا من لوزان، وقد أبدى الطبيب قلقه، وبدا الأمر غير مجدٍ، حاول أن يعرف شيئًا عن أسرة زوجتي، هل عرفت حالات عديدة من الدرن؟ أجبت بنعم. لم أكن متأكدًا، أشعرني بغم حين قال إنني السبب في كل هذا. وسألني عمَّا إذا كنت مريضًا قبل أن أعتني بـ «مارسلين»؟ بحت له بكل شيء، برغم أن الطبيب لم يطرح ذلك إلا بشكل عارض، فإنه أكد لي أن المرض يعود تاريخه إلى فترة زمنية قديمة، ونصحنا بالجو النقي في أعلى جبال الألب، مؤكدًا أن «مارسلين» سوف تبرأ، كنت

أرغب أن أقضي الشتاء بأكمله في «أنجادين»، خاصة أن «مارسلين» لم تكُن تحتمل السفر، ومع ذلك رحلنا.

كم أذكر كل حدث عشناه على الطريق، كان الجو ملبدًا وباردًا؛ فارتدينا أكثر الفراء دفئًا ... وفي «كوار» لم تتوقف الزوبعة، فمنعتنا تمامًا من النوم، وأخذت نصيبي من ليلة بيضاء لم أحس فيها بالتعب، لم أنزعج قط من هذه الضجة، سوى أن «مارسلين» لم تجد لها مكانًا في غرفتي، حاولت أن أنام برغم الضجة، وكانت «مارسلين» في أشد الحاجة إلى النوم. وقبل فجر اليوم التالي رحلنا، وجلسنا في نفس الأماكن في العربة المتجهة إلى «كوار»، وانطلقت الجياد بشكل جيد يسمح لنا أن نصل إلى «سان موريتز» في يوم واحد.

عبرنا «تفنكسنان» و«بوجوليه» و«سمدان» ... وأذكر كل شيء، ساعة ساعة، شخص يأمل كل ما هو جديد، ونقاء الهواء، وصهيل الجياد، وسط جوعي ولهاث الظهر أمام الفندق، والبيض المسلوق الذي أحبه في الشوربة، والخبز والنبيذ المثلج، هذه الأطعمة الخشنة كانت تسبب ألمًا لـ «مارسلين»؛ فلم تستطع أن تأكل سوى القليل، أو لا تأكل شيئًا بالمرة سوى بضع قطع من البسكويت الجاف التي اشتريتها لحسن الحظ من على الطريق.

كنت أرى غروب النهار، وسرعة صعود الظل على منحنيات الغابات، ثم عند المحطة، أصبح الهواء أكثر حيوية وأكثر حركة. وعندما توقفت العربة انغمسنا بكل قلوبنا في الليل، وفي الصمت الرخو الهش ... ليست هناك كلمات أخرى، فأقل ضجة تأخذني في هذا الجو الغريب الشفاف. وفي المساء نعاود الرحيل، تسعل «مارسلين» ... آه! إنها لا تتوقف عن السعال؟ أتذكر عربة مدينة سوسة، يبدو لي أنني كنت أسعل أكثر منها، إنها تبذل جهدًا خارقًا ... كم تبدو ضعيفة ومتغيرة! في الظل أكاد أتعرف عليها بصعوبة، فقد شحبت ملامحها، ترى هل أراها هكذا بهذين الثقبين السوداويين في مفارشها؟ آه! إنها تسعل بشكل مخيف! هذه هي حصيلة عنايتي بها، خفت من التعاطف معها، ففيه تختبئ كل العدوى؛ فنحن يجب ألا نتعاطف إلا مع الأقوياء.

حقًّا، إنها لا تستطيع! ولن يحدث ذلك قريبًا ... ماذا تفعل؟ تمسك منديلها وتضعه على شفتيها. وتستدير ... شيء مرعب! هل سوف تبصق دمًا ثانيةً؟ أشد المنديل بعنف من يديها، وأنظر إليه في ضوء المصباح الضعيف ... لا شيء ... لكنني أحس بالمعاناة. تجاهد «مارسلين» بحزن في أن تبتسم وتتمتم: لا. لا يزال بعد.

وصلنا أخيرًا. ليس أمامنا سوى الوقت، نتماسك بصعوبة، ولا تقنعنا الغرف التي تُعدُّ من أجلنا، نقضي فيها الليل وفي الغد نغيرها. لم يبدُ لي شيئًا جميلًا ولا غاليًا. موسم

الشتاء لم يبدأ بعد؛ فإن أغلب الفندق خالٍ من الروَّاد، ويمكنني أن أختار، اخترت حجرتَين واسعتَين يدخلهما الضوء، وبهما أثاث بسيط، وقاعة كبيرة تؤدي إلى نافذة يمكن أن نرى فيها البحيرة الزرقاء، ولا أعرف أي مرتفع بشع هذا، إنه ذو انحناءات وعرة ومكشوفة تمامًا. هناك كنا نُعدُّ وجباتنا. كانت الغرفة غالية السعر، لكن ماذا يهم؟ لم تكن أبحاثي معي، لكننا بعنا «لامورنيير»، وسوف تسير الأمور على ما يرام ... من ناحية أخرى هل أنا في حاجة إلى المال؟ هل أنا في حاجة إلى كل ذلك؟ لقد أصبحتُ قويًّا الآن ... أعتقد أن تغيُّرًا ماليًّا كاملًا يجب أن يتم أكثر من تغيُّر في صحة «مارسلين»، إنها في حاجة إلى مكان فخم، فهي ضعيفة ... آه! فمن أجلها أودُّ لو أنفقت كل ما أملك وسرعان ما ينتابني. الخوف والإحساس بالفخامة. لقد غسلتها، وحممت فيها مشاعري الحسية، ثم تمنيتها شاردة.

وبدأت «مارسلين» في التحسن، وانتصرت عنايتي الصارمة، وعندما أصبحت قادرة على الأكل، رحت أحمِّس شهيتها بكلماتي وتوسلاتي، كنا نشرب أحسن النبيذ، وتمنيت أن تتذوقه جيدًا، وكم كانت تسليني هذه الأنوار الغريبة التي تعبر عنها كل يوم، إن لها عبق نبيذ الراين، وشراب «التوكي» الذي يملؤني بالنشوة الحقيقية، إنه شراب غريب، لم يبقَ منه سوى زجاجة، ولا أستطيع أن أحدد مذاقه الموجود في الزجاجات الأخرى.

في كل يوم كنا نخرج في سيارة، ثم إلى زحافة، وعندما يتساقط الجليد نتلفع بالفراء حتى الرقبة، وأولِّي وجهي للنيران، وقد ملأتني الشهية ثم النوم، لم أكُن قد تخليت تمامًا عن العمل، وفي كل يوم كنت أخصص ساعة لأنجز ما يجب أن أقوله. لم يكُن التاريخ محل نقاش، فمنذ أمد طويل وأبحاثي التاريخية لم تَعُد تهمني إلا كوسيلة للراحة النفسية، وتساءلت: كيف ارتبطتُ من جديد بالماضي؟ عندما تصورت أن المتاعب تتراكم، — زعمت بقوة الضغط على الموتى — أنني أحصل منهم على بعض تعليمات الحياة السرية ... الآن فإن الشاب «أمالريك» يمكنه أن يكلمني، وينهض من مقبرته. لم أسمع الماضي قط، تُرى هل تكفي إجابة قديمة للرد على سؤال جديد؟ وماذا يستطيع الإنسان؟ هذا هو ما يهمني معرفته، وما قاله الإنسان حتى الآن. ترى ماذا يمكنه أن يقوله؟ ألم يجهل دومًا ما يكونه؟ ألم يبقَ له ما يقوله؟ نحن نتخبط يوميًّا داخل مشاعر الثراء الخفي الذي يغطي ويخنق الثقافات والمعنويات.

بدا لي أنني ولدت من أجل نوع مجهول من الوجود، اندمجت عاطفيًّا في أبحاثي الصعبة التي أعرف فيها أن على الباحث أن يدفع عن نفسه الثقافة، والكياسة، والمعنى.

لم أستطع أن أتذوق شيئًا آخر سوى بعض الاحتجاجات الوحشية، ولسبب بسيط لم أرَ في المشرف سوى القيود والاعتراضات والخوف، أعجبني أن نتحابَّ وكأنه أمر صعب

ونادر. بدت عادتنا ذات عامل مشترك وأبدي متعاقدًا عليه، إنها في سويسرا تمثل جزءًا من التوافق، فهمت أن «مارسلين» في أمسِّ الحاجة إليها، ولكنني لم أخفِ عنها أفكاري ودراساتي الجديدة لتلك الأفكار. لقد كانت تمتدح هذا الشرف الذي تتنفسه في «نيوشاتل» من خلال الجدران والوجود، قلت: دراستي تكفيني بشكل متسع، لديَّ ما يكفي من الشرفاء لدرجة مثيرة، وليس لدي ما أخشاه منهم، ليس لديهم ما يقولونه ... الشعب السويسري شريف! ولا شيء يهمه، إنه يعيش بلا جرائم، ولا حكايات، ولا أدب، ولا فنون، أنه أشبه بزهرية خالية من الورد والأشواك.

كم يضايقني هذا البيت الشريف، خاصة ما تعرفه عن ماضيه، ولكن خلال شهرين أصبح هذا الملل نوعًا من الصرع، رحت أفكر في الرحيل.

كنا في منتصف يناير، ولقد تحسنت «مارسلين» كثيرًا، وتلاشت الحمى عنها ببطء، وبدأ الدم يورد خديها، مثلما كانت قبل المرض، لم أجد صعوبة في إقناعها أن كل شيء على ما يرام، وأن هذا الجو كان مناسبًا، وأنه من الأفضل الآن أن ننزل إلى إيطاليا حيث أرض الربيع الدافئة التي ستساعد على شفائها نهائيًّا، لم أجد صعوبة في إقناع نفسي بذلك بعد أن مللت كثيرًا من هذا العلو الشاهق.

ومع ذلك، فالآن، راح الماضي الكريه يستعيد قوته وسط كل هذه الذكريات التي تغريني، والتدريبات السريعة في التزحلق، واللعب في الهواء الجاف، وتلطخ الجليد، والمشي الحذر في الضباب، وصفاء الأصوات الغريب، وظهور بعض الأشياء المفاجئ. ظل البعض في القاعة وهم يقرءون ويشاهدون المناظر الرائعة عبر الزجاج ومناظر الجليد التي تخفي معالم العالم الخارجي، جمعت الأفكار بشكل حسي ... ورحت أتزحلق على الجليد معها، فوق البحيرة النقية المحاطة بأشجار الأرز الضائعة، ثم أعود معها في المساء.

كان النزول إلى إيطاليا بالنسبة لنا أشبه بدوامات السقوط. بدا الجو جميلًا، رحنا نغوص في الهواء الدافئ والكثيف، بدت الأشجار متجمدة في أطرافها: الأرز، والصنوبر. بدت خضرة الأشجار الداكنة غارقة في البلل وأن عليَّ أن أترك الحياة المجردة، وبرغم الشتاء فقد رحت أتخيل العطور تفوح في كل مكان، آه! منذ وقت طويل لم نضحك إلا من الظلام! لقد أثملني الحرمان، وأسكرني العطش، مثلما يسكر آخرون من النبيذ.

كانت حياتي المالية مستقرة، وعلى عتبة هذه الأرض الزاخرة والواعدة لشهيتي المتفجرة، يكمن حب ضخم يعصف بي، ويتسرب أحيانًا من أعماق جسدي إلى رأسي ويخترق أفكاري.

لم يستغرق هذا الوهم الربيعي سوى القليل من الوقت، واستطاع أن يزعجني تغير الموقف المفاجئ للحظة، ولكن ما إن غادرنا ضفتي بحيرات «بلاجيو» و«كوم»؛ حيث أقمنا بضعة أيام حتى وجدنا الشتاء والمطر، أما المطر الذي عانينا منه فقد كان في «أنجادين»، وهو ليس أكثر جفافًا وخفة مثلما هو في أعالي الجبال، ولكنه رطب وجاف، مما جعلنا نعاني. راحت «مارسلين» تسعل، وكي نهرب من البرد توجهنا نحو الجنوب، ثم تركنا ميلانو إلى نابولي التي كانت — تحت مطر الشتاء — أكثر المدن التي عرفتها مرارة، وعشنا مللًا لا اسم له، ثم آثرنا العودة إلى روما لنبحث عن الدفء والراحة؛ فأجرنا غرفة واسعة فوق مرتفعات «بيشينو» وكانت ذات موقع متميز، ولم أشعر بالارتياح في فنادق فلورنسا. وأجرنا «فيلا» رائعة لمدة ثلاثة أشهر تطل على «وادي شيلي». لم نبقَ هناك أكثر من عشرين يومًا، وفي كل مرحلة جديدة كنت أعتني بكل شيء، فقد كان علينا أن نعاود الرحيل؛ لذا راح شيطان قوي يدفعني للرحيل، لم نحمل معنا سوى ثماني حقائب، واحدة منها مليئة بالكتب، لم نفتح أيًّا منها طوال الرحلة.

لم أذكر أن «مارسلين» انشغلت بأمر المصاريف، ولم أحاول أن أتولاها، فهي منهكة تمامًا، وكنت أعرف أنه يمكنها أن تفعل شيئًا، أما «بوكاج» فقد كتب أنه لم يجد مشتريًا، ها هو ذا المستقبل يؤكد أن المصاريف ستكون أكثر.

آه! كما أنا في حاجة إلى الكثير ودفعة واحدة! رحت أفكر وأتأمل، وأنا أعاني وأترقب، فلا شك أن حياة «مارسلين» الهزيلة تتبدد أسرع من ثروتي. وبرغم أنها كانت تلقى مني كل عناية؛ فإن هذه التنقلات السريعة كانت تتعبها، ولكن الذي أتعبها أكثر — وأستطيع أن أبوح بذلك الآن — هو الخوف من أسلوبي في التفكير.

قالت لي يومًا: أنا أفهم مذهبك، مذهب العصر، إنه رائع! ثم أضافت بصوت خفيض ومحزن: ولكنه مذهب الضعفاء.

أجبت على الفور رغمًا عني: هذا هو المفروض.

ورحت أتشمم — تحت تأثير وقاحة كلمتي — هذا الكيان الحساس ينثني ويرتعد. آه! ربما تفكرون أنني لم أحب «مارسلين»، أقسم إنني أحببتها بقوة، ولم تكن ولم تَبدُ لي جميلة مثلما كانت في هذه المرحلة.

لقد انتشر المرض وأنهك ملامحها؛ لذا لم أتركها، ورحت أحوطها بكل عناية، وأحميها وأسهر عليها في كل لحظة، ليلًا ونهارًا، كان نومها خفيفًا، حاولت أن أجعل نومي أكثر خفة، أراقبها وهي تنام، وأستيقظ قبلها، وعندما أتركها أحيانًا ساعة أسير بمفردي في

الحقول أو في الشوارع، ولا أعرف أي أهمية للحب والخوف أن تشعر بالملل الذي يربطني نحوها بسرعة، وأحيانًا أنادي إرادتي، وأحتج على هذه السلطة وأنا أقول لنفسي: أليس هذا هو ما تساويه؟ رجل مزيف كبير، يجعلني أخشى أن يدوم غيابي، وأعود وذراعاي محملتان بالزهور، زهور حديقة لم تتفتح أزهارها. أو نضجت نباتاتها قبل الأوان ... نعم. أقول لكم: لقد أحطتها برعايتي، ولكن كيف أعبر عن هذا؟ لقد قلت من احترامي لنفسي، وأكثرت من تبجيلها، ومن يخبرني كم من العاطفة وكم من الأفكار يمكنها أن تسكن في الإنسان؟!

منذ أمد طويل انتهى الطقس السيئ، ووصل الربيع، أزهرت أشجار اللوز، إنه أول مارس، في الصباح أتوجه إلى ميدان «إسبانيا»، أرى الفلاحين يهزون الأغصان البيضاء، وزهور أشجار اللوز محملة في سلال البائعات، وكم تبلغ سعادتي حين أشتري باقة يحملها لي ثلاثة رجال، وأعود بكل هذا الربيع وقد تشابكت الأغصان عند الأبواب، وتسبح البتلات فوق السجاد، فأضع منها في كل مكان، في الزهريات، وتصطبغ القاعة باللون الأبيض، في اللحظة التي تغيب فيها «مارسلين»، ثم تلهيني فرحتها حين أسمعها قادمة، ها هي ذي تفتح الباب، ماذا بها؟ إنها تتأوه ... تنفجر منتحبة:

– ماذا بك يا «مارسلين»؟

أسرع نحوها، وأغطيها بالمداعبات الرقيقة، وكأنني أعتذر عن دموعها. قالت: هذه الرائحة تؤلمني، إنها النهاية، هناك رائحة غامضة.

وقبل أن تكمل أمسكت كل الأغصان البريئة الهشة ورحت أحطمها، وكسرتها جميعًا وألقيتها، في حين تفجر الدم في عينيها، آه! لقد حل عليها ربيع لم تَعُد تحتمله.

كنت أتألم دومًا من هذه الدموع، وأعتقد الآن أنني أشعر بالذنب، إنها تندم على مواسم الربيع المنصرمة، رحت أفكر أن البهجة الكبرى لا تحل إلا على الأقوياء، أما هي فلا تكسرها الفرحة، مهما حدث، ولم تعُد تحتمل ما يمكن أن نسميه السعادة، وما أطلق عليه «الراحة». أنا الذي لم أكن أنشد سوى الراحة.

بعد أربعة أيام، رحلنا مرة أخرى إلى «سورنتو»، وفشلت في أن أجد الدفء. بدا كل شيء مرتعدًا، فالرياح لا تكفُّ عن الهبوب، مما أنهك «مارسلين» كثيرًا، أردنا أن ننزل في نفس الفندق الذي نزلنا فيه أثناء رحلتنا السابقة، وسكنَّا نفس الغرفة، ثم رحنا نتطلع بدهشة إلى الديكور المندي أسفل سماء ملبدة بالغيوم، فها هي ذي حدائق الفندق مبللة وتبدو ساحرة عندما ننزه حبنا فيها.

حاولنا أن نصل على بحر «باليرمو» الذي يوفر لنا المناخ المطلوب، فعُدنا إلى نابولي، ومن هناك أردنا أن نبحر، لكننا تأخرنا، لم أشعر بأي ضيق، فنابولي مدينة حية لا تعود أبدًا إلى الوراء.

كنت أجلس على مقربة من «مارسلين» طيلة النهار، وفي الليل تنام مبكرة تعِبة؛ فأروح أراقبها وهي نائمة، وأحيانًا أنام، وعندما تبدأ في اللهاث أحس أنها نائمة؛ فأنسحب بخفة، ثم أرتدي ملابسي وسط الظلام، وأتسلل إلى الخارج كاللصوص.

في الخارج أُطلق تنهيدة، وأتساءل: ماذا أفعل؟ لا أعرف الإجابة، فالسماء قد غامت، وتخلصت من سحبها، وبدأت أشعة القمر تملؤها.

أحيانًا أمشي بلا هدف، وبلا رغبة أو خشية، وأنظر إلى كل شيء بعيون جديدة، وأترقب في كل ليلة بعينين منتبهتين، أتنفس رطوبة الليل، وأضع يدي على أشياء، وأنا أتجول في المكان.

في آخر ليلة أقمناها في نابولي قمت بجولة حرة، وعندما عدت وجدت «مارسلين» تبكي، أخبرتني أنها خائفة، وأنها استيقظت فجأة وأحست بي هناك. رحت أهدئ من روعها، وأحدثها عن غيابي، وعدتها ألا أتركها، ولكن في أول ليالينا في «باليرمو»، رحت أخلُّ بوعدي، فخرجت. كانت أشجار البرتقال تطلق زهورها، وتدفع الرياح إلى خياشيمي بروائحها.

لم نبقَ في «باليرمو» سوى خمسة أيام، ثم اتجهنا إلى «تاورمين» التي اشتقنا لرؤيتها، هل قلت إن القرية معلقة في الجبل؟ كانت المحطة تطلُّ على شاطئ البحر، اصطحبتنا العربة إلى الفندق مباشرةً نحو المحطة؛ حيث رحت أجمع حقائبنا، ظللت واقفًا في العربة أتحدث مع الحوذي إنه صقلي صغير، جميل كقصيدة ثيوقراط، انطلق يتكلم وكأنه ثمرة طازجة، قال بصوت ساحر وهو ينظر إلى «مارسلين» تبتعد: كم هي جميلة هذه السيدة!

أجبت: وأنت أيضًا جميل يا فتى!

وبرغم أنني كنت قريبًا منه فلم أستطع الإمساك به، أو أن أجذبه، تركني أفعل وهو يضحك. وقال: كل الفرنسيين عُشَّاق.

أجبت وأنا أضحك: لكن ليس كل الإيطاليين عُشَّاقًا.

– رحت أبحث عنه في الأيام التالية، لكنني لم أستطع أن أجده.

تركنا «تاورمين» إلى «سيراكوزة»، ثم كان علينا أن نكرر رحلتنا الأولى بنفس الخطى، ونبدأ حبنا من جديد، ومن أسبوع لأسبوع، مثل رحلتنا الأولى عندما كنت أتماثل للشفاء، ومن أسبوع لآخر رحنا نتجه نحو الجنوب، في حين كانت حالة «مارسلين» تزداد سوءًا.

تملكتني رغبة جنونية يحكمها العناد الأعمى، خاصة أنني حاولت أن أقنعها أنه يلزمها الضوء والحرارة، ورحت أتذكر فترة نقاهتي في «بسكرة» … كان الجو دافئًا أحيانًا أقرب إلى «باليرمو»، كان معتدلًا، وقد أعجب «مارسلين». لعلها يمكن أن تتحسن هناك، لكن هل أستطيع الاختيار، وأن أقرر رغبتي؟

كان البحر في «سيراكوزة» والخدمة من الأمور العادية، وأجبرتنا السفن أن ننتظر ثمانية أيام، في كل لحظة كنت أقضيها قريبًا من «مارسلين»، رحت أقضيها في الميناء القديم، ميناء صغير تفوح منه رائحة الدهانات، ويمتلئ بالمتشردين، والبحارة السكارى، كان مجتمعًا مليئًا بأناس يتمتعون بصحبات جميلة، كم أنا في حاجة أن أفهم لغتهم، وأن يتذوقها جلدي جيدًا، أما بشاعة المشاعر فتبدو في عيني مخادعة، وتبدو عليها صحتها لا بأس بها، قلت لنفسي: إن هذه الحياة البائسة لا يمكن أن تمثل بالنسبة لهم سوى الذوق الذي أتمتع به. آه! أردت أن أجلس معهم تحت المائدة، وألا أستيقظ إلا على رعشة الصباح الحزينة، ورحت أخفي أمامهم رعبي المتنامي من كثرة الراحة، وهذه الموهبة التي تمثل لي حماية من صحتي التي جعلتني غير مجدٍ، ومن كل التحذيرات التي نمارسها كي نحفظ أجسادنا من الاتصال المفاجئ بالحياة. تخيلت وجودهم من بعيد، حاولت أن أتبعهم، وأنا أغوص في سكرتهم، ثم فجأة تراءت لي «مارسلين»، ماذا تفعل في هذه اللحظة؟ إنها تعاني، ولعلها تبكي … قمت مسرعًا، ورحت أجري، وعدت إلى الفندق، وبدا لي أنه مكتوب على الباب «هنا يدخل المساكين».

تستقبلني «مارسلين» بنفس الطريقة … لا تبدو عليها الثقة أو الشك، تحاول أن تبتسم برغم كل شيء، تتناول وجبتها، وأقوم بخدمتها، ويبدو الفندق المتوسط في أفضل حالاته، وأروح أفكر وأنا آكل قطعة خبز وجبن، تكفيها ثمرة «شمار»، وتكفيني مثلها، وربما كان هناك على مقربة منها شخص جوعان، وهناك من ليس لديه هذا الرزق البسيط، وها هو ذا على مائدتي أحتفظ به طوال ثلاثة أيام، حاولت أن أحطم الجدران، وأن أطرد الضيوف؛ لأن الإحساس بالجوع يجعلني أعاني بشدة، فأعود إلى الميناء القديم، وأطلب لقيمات صغيرة أملأ بها الجيوب.

فقر الإنسان هو عبوديته للأكل، إنها تجعله يقبل عملًا بلا متعة؛ فكل عمل ليس مبهجًا يثير الكراهية، رحت أقول لنفسي، لا تفعل هكذا، فهذا أمر يثير الملل، كم أحلم لكل إنسان بهذا الفراغ دون تفسير. يا للخطيئة! ويا للفن!

لم تناقشني «مارسلين» في أفكاري عندما عدت من الميناء القديم، ولم أخفِ عنها أي بشر مساكين أحاطوا بي، كلهم من البشر، فهمت «مارسلين» جيدًا ما أحاول أن أكتشفه،

وكأنني جعلتها تؤمن بالفضائل التي تخترعها حسب رؤيتها وقالت لي: أنت لا تكون سعيدًا إلا عندما ترتكب بعض الرذائل، ألا تفهم أن نظرتنا تنمو وتنتشر إلى حد أن نصبح نحن ما نزعم أن نكون؟ حاولت أن أفهمها أنها ليست على حق، ولكن يجب أن أقول: إنه في كل كيان تبدو لي الغريزة المضاعفة أكثر صفاءً.

تركنا «سيراكوزة» وقد أغوتنا ذكريات الجنوب. عند البحر تحسنت «مارسلين» ... رأيت صوت البحر هادئًا. أسمع صوت الهدير والضجيج المتموج، وغسيل الكوبري، عند الواحة ارتفعت فرقعات الأقدام الحافية للغسَّالين. رأيت «مالطة» بيضاء. ثم اقتربنا من «تونس»، وأدركت كم تغيرت!

كان الجو حارًّا ورائعًا، ويبدو كل شيء جميلًا، يهتز العشب بتلذذ، حاولت طويلًا أن أقول لكم كيف أصبحت. آه! ارتبكت روحي لهذه العقلانية غير المحتملة! فلم أحس بشيء من هذا النبل في داخلي.

في تونس، النور أكثر كثافة وقوة، والظل ممتد، ويبدو الهواء أكثر نقاءً، يلمع فيه كل شيء ويغوص ويسبح. هذه الأرض النشوى تبدو راضية، ولكنها لا تعبر عن أي رغبة، وترتفع فيها نسبة الرضا.

إن أرضي في إجازة من العمل الحرفي، كم أحتقر هؤلاء الذين لا يعترفون بالجمال الذي فرض نفسه. الشعب العربي يعيش فنه ويحياه، ويتغنى به ويشدو كل يوم، إنه لا يحدده أبدًا ولا يحتفظ به في أي عمل، وهذا سبب غياب الفنانين الكبار ... كم آمنت أن الفنانين الكبار هم الذين يُكسبون الأشياء جمالًا طبيعيًّا من خلال ما يقولونه ويرونه: «كيف لم أفهم حتى الآن أن هذا كان جميلًا؟»

كان الليل في القيروان — التي لم أكن قد عرفتها جيدًا، حين ذهبت بدون «مارسلين» — جميلًا للغاية، وكانت حرارة الساحل المنخفضة قد أضعفت «مارسلين» كثيرًا، حاولت أن أقنعها بما يلزمنا، وهو أن نصل إلى «بسكرة» بأسرع ما يمكن، فقد كنا في بداية شهر أبريل.

بدا السفر طويلًا، وصلنا في اليوم الأول إلى «قسنطينة»، وفي اليوم التالي تعبت «مارسلين» كثيرًا، ولم نكن قد وصلنا إلا إلى «القنطرة»، رحنا هناك نبحث عن ظل ظليل أكثر فوجدناه، راح هذا الظل يزحف إلينا، ومن فوق المنحدر الذي نجلس عليه كنا نرى الوديان المتعانقة.

في هذه الليلة لم تقدر «مارسلين» على النوم، وتملكها صمت غريب، وكانت أقل ضجة تُسبب لها إزعاجًا، كنت أخشى أن تصاب ببرد، وسمعتها تسعل في سريرها، وفي اليوم التالي رأيتها شاحبة، فرحلنا.

وصلنا «بسكرة» التي كم نشدتها ... ها هي ذي ... ها هي ذي الحديقة العامة، والمقعد، عرفت المقعد الذي جلستُ عليه في الأيام الأولى من نقاهتي، ماذا يربطني به إذَن؟ فأنا لم أفتح كتاب «هوميروس» منذ ذلك الحين، وها هي ذي الشجرة التي مسست لحاءها، كم كنت ضعيفًا آنذاك! ها هم الأطفال لا لم أتعرف عليهم. كم تبدو «مارسلين» مَهيبة، لقد تغيرت مثلي. لماذا تسعل في هذا الجو الجميل؟ ها هو ذا الفندق. ها هي ذي غرفنا وشُرفاتنا. فيمَ تفكر «مارسلين»؟ لم تقُل لي كلمة حتى وصلت إلى غرفتها، فتمددت على السرير، فبدت تعِبة، وقالت إنها تريد أن تنام قليلًا، فخرجتُ.

لم أتعرف على الأطفال، لكن الأطفال عرفوني، وبمجرد وصولي أحاطوا بي تُرى هل يمكن أن يكونوا هم؟ لقد كبروا، ربما أكثر بعامين، يا له من أمر مستحيل متعب! ويا لها من خطايا! تُرى أي بشاعة تبدو فوق هذه الوجوه التي ينفجر منها الشباب؟ أي أعمال قاسية تنهك هذه الأجسام الجميلة؟ رحت أسأل.

«بشير» صبي يعمل في مقهى، و«عاشور» يكسب قروشه القليلة بكسر حجارة الطريق، أما «عطار» فقَد فَقدَ عينيه، وأما «صادق» فيساعد أخاه الأكبر في بيع الخبز في السوق، بدا عليه أنه أصبح غنيًّا، وأما «نجيب» فيعمل جزارًا مع أبيه، وقد أصبح بدينًا ودميمًا، إنه ثري ولا يريد أن يتكلم مع رفاقه الذين خاصمهم ... كم من السمات الشريفة تبدو غبية! ترى هل أجد بينهم ما أكرهه فيما بيننا؟ وماذا عن أبي بكر؟ لقد تزوج وهو لم يبلغ الخامسة عشر. يا له من أمر جسيم! ومع ذلك قابلته في المساء، راح يشرح أن زواجه كان بمثابة صفقة تجارية، إنه — كما أعتقد — واجب مقدس، ولكنه يشرب ويفقد وعيه ... وماذا بقي أيضًا؟ إنها الحياة! أحسست أن حزني الذي لا يُحتمل قد دفعني لرؤيتهم، لقد كان «مينالك» على حق، فالذكرى ابتداع الأسى.

وماذا عن مختار؟ لقد خرج من السجن، واختفى، ولم يتفق الآخرون معه، أردت أن أراه، لقد كان أكثرهم جمالًا، هل سوف يعرفني؟ لقد وجدوه ... ترى هل سيصحبونني إليه؟ لا! لم تبدُ لي ذكرياتي رائعة، كانت قوته وجماله رائعين ... ابتسم حين تعرف عليَّ.

– ماذا فعلت قبل أن تدخل السجن؟

– لا شيء.

– هل سرقت؟

احتج.

– ماذا تفعل الآن؟

ابتسم.

– إذَن، فليس لديك ما تفعله ... سوف تصحبنا إلى «تورجورت».

لم تتحسن «مارسلين»، ولم أعرف ماذا يحدث لها، وعندما عدت في تلك الأمسية إلى الفندق، راحت تضغط على يدي دون أن تنطق كلمة، وقد أغلقت عينيها، كشف كمها الواسع عن ذراعها التي أصابها الهزال، داعبتها وضممتها طويلًا، كطفل نريده أن ينام، أهو الحب أم المعاناة؟ أم الحمى التي تجعلها ترتعد هكذا؟ ربما كان هناك وقت.

ألن أتوقف؟ لقد بحثت ووجدت ما هي قيمتي. إنها نوع من العناد الزائد، لكن كيف سأقول لمرسلين إننا سنرحل في الغد إلى «تورجورت»؟

إنها الآن نائمة في الحجرة المجاورة، القمر مضيء منذ وقت طويل ويضيء الشرفة بكاملها بضياء يثير الخوف، ولا يمكن أن يختفي ... كان بغرفتي بلاط أبيض، بدا الضوء متسللًا من النافذة المفتوحة، وقد غطى الغرفة حتى الباب، لقد دخل قبل عامين بنفس الطريقة ... نعم، إنه يتقدم الآن، وعندما قمت لأنام أسندت كتفي على الباب وتطلعت إلى أشجار النخيل ترى أي كلمات حفظتها في هذا المساء؟ ... آه! نعم، كلمة السيد المسيح للقديس بيير: «الآن سوف تركن نفسك، وستذهب إلى حيث تشاء.»

ترى أين أذهب؟ أين أريد أن أذهب؟ لم أقرر. إلى نابولي. في المرة الأخيرة وصلت إلى بوستوم ذات يوم وحدي ورحت أبكي أمام الحجارة! وبدا الجمال القديم بسيطًا، وراقيًا، ومبهجًا، ومهجورًا، وأحسست بالفن في داخلي، هل أضع شيئًا مكان آخر؟ ما عادت الأشياء كما كانت، ابتسم، الابتسامة مشرقة، يا إلهي، أعطني القدرة لمعرفة هذه الأجناس الجديدة.

في صباح اليوم التالي ركبنا العربة ومعنا مختار الذي كان سعيدًا وكأنه الملك.

مررنا ببلاد كثيرة على الطريق: «شيجا»، «كتل دور»، «معزير» ... بدا الأمر غير محتمل ... فهذه الواحات تثير الضحك، ليس بها سوى الرمال والحجارة، وبعض الأدغال التي تنمو فيها زهور غريبة، وفي بعض الأحيان يتحول النخيل إلى مخابئ، كم أفضل الواحة في الصحراء ... هذا البلد ذو المجد الخالد والروعة الأبدية يبدو فيه جهد الإنسان قبيحًا وبائسًا. الآن فإن كل الأرض الأخرى تثير فيَّ الملل.

قالت «مارسلين»: «هل تحب كل ما هو غير آدمي؟»

راحت تنظر إلى نفسها، وبكل نهم.

بدا الجو مزعجًا قليلًا في اليوم التالي، بمعنى أن الرياح اشتدت، وتبلد الأفق بالسُّحب، وراحت «مارسلين» تعاني؛ فقد راحت الرمال التي تتنفسها تحرقها، وتؤلم حنجرتها، وتعكس آثار التعب في نظرتها، وبدا هذا المنظر العدواني كأنه يقتلها، لكن الآن يبدو الوقت متأخرًا فيما يتعلق بالعودة، فخلال بضع ساعات سنكون في «تورجورت».

لا أذكر التفصيلات جيدًا بشأن هذا الجزء الأخير من الرحلة، أذكر المناظر في اليوم التالي، وما فعلته في «تورجورت». وأذكر أنني تذرعت بالصبر جيدًا.

اشتد البرد في الصباح، وفي المساء هبت ريح عاتية، ونامت «مارسلين» بعد أن أنهكها السفر بمجرد وصولها، تمنيت أن أجد فندقًا مريحًا، بدت غرفتنا مخيفة، غزاها الرمل والشمس والذباب، وكل شيء قذر وغير منعش، لم يتغير فيها شيء منذ الفجر. أعددت الطعام، لكن كل شيء بدا رديئًا لـ «مارسلين»، ولم أستطع أن أجعلها تتخذ قرارًا، أعددنا الشاي معًا، وانشغلت بالاعتناء بها، وفي العشاء تناولنا بعض الكعك والشاي الذي أكسبته المياه القذرة طعمًا غير مستساغ.

وفي ليلة أخرى، ظللت حتى المساء قريبًا منها، وفجأة أحسست بخوارٍ في قوايَ، ترى أهو طعم الرماد أم التعب، أم الحزن من الجهد غير الآدمي؟ أكاد أستطيع رؤيتها، وأعرف جيدًا أن عينيَّ بدلًا من أن تبحثا عن نظراتها فإنهما تركزان فوق فتحتي أنفها السوداوين. كانت تعبيرات وجهها قاتمة، ولم تكن تنظر إليَّ. أحسست بمعاناتها وأنا ألمسها، راحت تسعل كثيرًا، ثم نامت، ومن لحظة لأخرى تهزها الرعشات.

يمكن أن يكون الليل سيئًا، وقبل أن يتأخر كنت أودُّ أن أعرف إلى أين أتوجه فأخرج. وأمام باب الفندق ميدان «تورجورت»، والشوارع، والجو، يبدو كل شيء غريبًا لدرجة تجعلني أحس أنني لست الذي يراها، وبعد لحظات أعود، وأرى «مارسلين» تنام هادئة، وأحس بالخوف فوق هذه الأرض الغريبة التي ينفجر فيها الخطر، يا له من أمر عبثي! أحس بشيء يكتمني فأخرج.

في الميدان تنتابني مشاعر مريرة، الميدان صامت، تعزف الرياح موسيقى غريبة تمزق المكان ولا أعرف من أين تجيء .. أرى شخصًا يقبل نحوي، إنه مختار، قال إنه ينتظرني وإنه اعتقد أنني سأخرج، إنه يعرف «تورجورت» جيدًا، وكثيرًا ما جاء إليها ويعرف أين يصحبني، فتركت نفسي له.

سرنا في الليل، ودخلنا مقهى عربيًّا انبعثت منه الموسيقى، ترقص فيه نساء عربيات، هل يسمون هذه الحركات ذات الوتيرة الواحدة رقصًا؟

أمسكتني واحدة منهن بيدي، وتبعتها، إنها عشيقة مختار الذي صحبها، ودخلنا غرفة ضيقة بها قطعة أثاث واحدة هي السرير، سرير منخفض جلسنا عليه. هناك أرنب أبيض محبوس في الغرفة، هاج في البداية ثم سكن وجاء يأكل من يد مختار، جاءوا لنا بالقهوة، وبينما راح مختار يداعب الأرنب جذبتني المرأة نحوها.

آه! يمكن أن أتظاهر بالسكوت، لكن ماذا يهم في هذا الأمر؟ هل يمكن أن يصبح حقيقة؟

عدت إلى الفندق، وبقي مختار هناك طيلة الليل، كان الوقت متأخرًا، هبت رياح شديدة مشبعة بالرمل والزوابع برغم الليل، وما إن مشيت حتى غرقت فيها وهرولت لأعود، وسرت في التيار، ربما استيقظت … ربما كانت في حاجة إليَّ؟ لا … فممر الغرفة مظلم. سمعت صفير الرياح وأنا أفتح، دخلت برقة في الظلام، ما هذه الضجة؟ لم أعرف سعالها، فأضأت النور.

كانت «مارسلين» جالسة القرفصاء فوق سريرها، وقد وضعت إحدى يديها النحيلتين فوق مسند السرير في حين غرقت يداها وقميصها في فيضان الدماء، وبدا وجهها متسخًا، أما عيناها فقد اتسعتا بشكلٍ بشع، ولا أعرف أي صرخة ألم أثارتني في صمتها. بحثت في وجهها الشفاف عن مكان صغير أطبع عليه قُبلة، انطبع مذاق عرقها على شفتي، غسلت ورطبت جبهتها على السرير. انحنيت ولملمت المسبحة التي اشترتها من «باريس» والتي سقطت منها، وضعتها في يدها المفتوحة، ولكن يدها انبسطت! لم أعرف ماذا أفعل؟ وودت أن أطلب النجدة … سقطت يدها عليَّ في يأسٍ شديدٍ، ترى هل تصورت يائسة أنني أريد أن أتركها؟ قالت: «آه! يمكنك أن تنتظر أيضًا» … أحست أنني أريد أن أتكلم، فأضافت: «لا تقل شيئًا، كل شيء على ما يرام.» ومن جديد لملمت المسبحة، ثم تركتها من جديد. ماذا أقول؟ لقد سقطت، انحنيت عليها ورحت أضغط على يدها.

تركت نصفها على اللوح، والنصف الآخر على كتفي، وبدت نائمة قليلًا … ثم ظلت عيناها مفتوحتين.

وبعد ساعة انسابت يدها من يدي، واستقرت على قميصها، بعد أن مزقت الدانتلا، إنها تختنق. وفي الصباح انتابها التقيؤ الدموي.

(٢)

لقد انتهت حكايتي. ماذا أضيف؟ القور الفرنسية في «تورجورت» بشعة، فقد غطتها النيران. حاولت أن أنتزعها بكل ما بقي لي من قوة واهنة في هذا المكان، لقد استراحت في القنطرة، في ظل حديقة خاصة كانت تحبها، حدث هذا منذ ثلاثة أشهر، هذه الأشهر الثلاثة تبدو وكأنها قد ابتعدت لعشر سنوات.

ظل «ميشيل» صامتًا فترة طويلة، وسكتنا نحن أيضًا، أصاب كلًّا منا أسى غريب، لقد حكى «ميشيل» حكايته بشكل عقلاني، ولا نعرف كيف نتأكد من التبريرات التي قدَّمها لنا، والتي تبدو تقريبًا ضالعة، لقد أنهى قراءة النص دون أي رجفة في صوته، وبدون أن نشهد عليه أي حركة أو أي انفعال يزعمه، تملكه كبرياء جنوني لم يؤثر فينا لمرة، حاول إثارة عوطفنا بدموعه، لكن أبدًا لم أستطع أن أميز شيئًا فيه حتى الآن فيما يتعلق بالكبرياء، والجمود، والعفة.

ما يخيفني هو أنني ما زلت شابًّا، ويبدو لي أحيانًا أن حياتي الحقيقية لم تبدأ بعد. أبعدوني عن هنا الآن وأعطوني أسباب وجودي؛ فأنا لم أعرف كيف أجده، لقد تخلصت منه قدر الإمكان، لكن ماذا يهم؟ كم أعاني من هذه الحرية! صدقوني كم أنا مرهق من جريمتي!

من هذه الحرية! صدقوني كم أنا مرهق من جريمتي! من فضلكم سموها هكذا، ولكن يجب أن أبرهن لنفسي أني لم أتجاوز حقي.

لقد كان لديَّ أثر فكري عميق عندما عرفتموني أول مرة، وأنا أعرف أن هذا يصنع الرجال الحقيقيين، لكنني لم أبلغ هذا الأمر بعد، والسبب على ما أعتقد هو المناخ، فلا شيء يُحبط أكثر من الفكر الذي يلح على الإنسان، فكم من لذة تطارد الغريزة، تحوطها الروعة والموت. أحس الآن بالسعادة، وأرغب أن أهجرها، أنام وسط النهار كي أقضي وقت فراغي الذي لا يطاق.

ها أنا ذا هنا، انظروا إلى الحصى الأبيض الذي أضعه في الظل، كم أمسكت بالزَّبَد بين يدي حتى يتلاشى، فأعاود الأمر من جديد، أبادل الحصى، وأحاول أن أبلل التي خفت برودتها.

مر الوقت، وحل المساء ... خذوني من هنا، فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي، لقد تحطم شيء ما في إرادتي، لا أعرف أين أجد القوة لأبتعد عن القنطرة.

أحس أحيانًا بالخوف؛ لأنني لا أستطيع الانتقام، أريد أن أبدأ من جديد، أريد أن أتخلص من بقايا ثروتي. انظروا ... فهذه الجدران لا تزال مفتوحة ... هنا لا أرى شيئًا تقريبًا. صاحب فندق نصف فرنسي، مَنحني قليلًا من الطعام، وأحضر لي الطفل الذي رأيتموه يهرب ليلًا ونهارًا مقابل بعض القروش. هذا الطفل الذي يبدو متوحشًا مع الغرباء يبدو لطيفًا وفيًّا. أخته اسمها «ولدنايل» تذهب في كل عام إلى «قسنطينة»، إنها جميلة، وكم عانت في الأسابيع الأولى، وتجيء أحيانًا لقضاء الليل معي، ولكن أخاها الصغير

«علي» فاجأنا ذات صباح معًا، فثار غضبه، ولم يعد طوال خمسة أيام برغم أنه لم يعرف كيف رأى أخته، كان قبل ذلك يتكلم بلهجة ومعنى، هل هو غيور؟ لقد بلغ المهرج هدفه؛ فنصفه متضايق ونصفه يخاف أن يفقدني، بعد هذه المغامرة ابتعدت عني الفتاة غير غاضبة، ولكن في كل مرة أقابلها تضحك وتخرج بسبب أخيها ... ولعلها على حق.

هنـــداوي